



الدكتور عبد الله محمد سليمان هند او

استاذ البلاغة والنقد المساعد  
بكلية اللغة العربية - جامعة الازهر  
فرع الزقازيق

من أسرار النظم القرآني  
في  
الأفراد والتكثيف والجمع

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

مَطْبَعَةُ الْإِسْلَامِ

1. سوجز برع بدوان - شنبه مصوات : 37993.9



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد المنزه عن الشريك والند  
والولد والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين ، وأفصح  
العرب أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تابعهم باحسان  
الى يوم الدين وبعد :

فإن القرآن الكريم هو كتاب الله الخالد الذي لا يأتيه الباطل  
من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ودراسة القرآن  
جمعت اتجاهات متعددة في تفسيره ونظمه منها التفسير بالمأثور ومنها  
التفسير بالرأى ومنها ما جمعت بين الاتجاهين فالتقى فيها العقل  
والنقل ، ولعل هذا الاتجاه هو أصوبها لأن القرآن الكريم فيه المحكم  
والمتشابه « وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا  
به كل من عند ربنا » .

ويتناول هذا البحث بعض الألفاظ الواردة في القرآن على الألفاظ  
الثنائية والجمع ولاسيما المتشابه منها دراسة تحليلية مفصلة من خلال  
النظم وما توحى به من المعاني والأحكام البلاغية من خلال السياق ،  
فالقرآن قد اشتمل على ألفاظ ترد بصيغة المفرد ولم ترد بصيغة  
الجمع كلفظ الأرض لم ترد في القرآن مجمعة ، والألفاظ وردت على  
صيغة الجمع فقط ولم ترد مفردة ، وقد حاولت من خلال قراءتي في  
بعض المراجع أن أبين السر البلاغي لورودها على هذه الصيغة .

وفي النظم القرآني ألفاظ وردت مفردة في موضع ومثناة في موضع  
ومجموعة في موضع آخر فبيئت مدى مناسبة كل صيغة منها في سياقها

انذى وردت فيه ، وبينت الأسرار البلاغية التي تستفاد من كل موضع وقد يؤثر المنظم القرآني الأفراد على الجمع في مقام الجمع فيكون من وضع الواحد موضع الجمع .

وقد يؤثر الجمع على الأفراد فيأتى بالجمع على محل المفرد فيكون من وضع الجمع موضع الواحد ، ويفهم من وراء هذا وذلك أسرار بلاغية بينهاها من خلال السياق ، وقد يؤثر المنظم القرآني بتعنى جموع انقلة على جموع انكثرة أو العكس أو يؤثر بعض الجموع فتترد على صيغة معينة لم ترد على غيرها فتردت أن يقف القارئ على ورودها على هذه الصيغة دون غيرها .

والخطاب يتنوع من الأفراد إلى التثنية إلى الجمع أو بالعكس فتوقفت عندها إتيان من خلال السياق الأسرار البلاغية التي تفهم من وراء هذا التنوع .

وهذا البحث لم ينل كثيرا من عناية البلاغيين المتقدمين فانتتقرأ كتبهم البلاغية تجدها لا تتناول إلا مسائل قليلة لا تتعدى الصفحة أو الصفحتين ، وهذه القلة لا تشغى غليل الباحث المتطلع إلى دراسة هذا المستوع من كل جوانبه هذا هو الذى دفعنى إلى كتابة هذا البحث وأتى لأرجو الله تبارك وتعالى أن يجعله فى ميزان حسناتى يوم القيامة وأن يعم به النفع الله على ما يشاء تقدير وبالإجابة جدير .

والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

المؤلف

د/ عبد الله محمد سليمان هندأوى

## الفصل الأول

### ما ورد من المشهورات

#### في الافراد والتثنية والجمع

القرآن كلام الله المعجز فيه من الآيات البينات والدلائل الخيرات على سمو بلاغته واعجازه ما يفوق الحصر ولا يحيط به الوصف ولذلك سما عن بلاغة البشر فمعجزوا عن معارضته وهم في اسمي مولاه البشرية من الفصاحة والبيان .

ومن ثم تتابع العلماء في كل جيل للكشف عن أسرار اعجازه ويصمو بيانه بقدر ما اتيح لهم من علوم ومعارف ولا يزال القرآن عطاءه يتجدد في كل زمان ، وسوف نقتطف من أزهى أسرارته ودقيق بلسانه حول سر اختلاف صيغ كلماته من الافراد والتثنية والجمع ما يتسنع له المقام .

من ذلك ما نراه في سر العدد من الافراد الى الجمع في قوله تعالى « اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم » فإذا كان المصلى وهو فرد ينطق بهذا الكلام فيقول اياك أعبد واياك أستعين اهدنى . فلم جمعه ؟

والجواب عن هذا ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره وما نقله عنه القطب الرازي في حاشيته على الكشاف وحاصله : هو ان المؤمن في هذا المقام في غاية الخفوع والتذلل لله رب العالمين ، ولديه رغبة ملحة في قبول صلاحه ودعائه فكل العبد يقول : اللهم لا تلهني عبادتي

إلى حيث أستحق أن أذكرها وحدها ، لأنها ممزوجة بجهات التقصير  
ولكني أخلطها بعبادات جميع العابدين وأذكر الكل بعبارة واحدة وأقول  
« أياك نعبد وأياك نستعين » فأحمدك وأبديك وأستعين بك لا وحدي  
بل مع الملائكة وسائر الناس وفائدته : أنه إذا عرض على حضرة الله حمد  
جميع الحامدين وعبادة جميع العابدين وحاجات جميع المحتاجين عاما أن  
يزد الكل وذلك غير حاصل لخالفته وعدة الصادق في كتابه إذ غيهم الملائكة  
والأنبياء والأولياء . أو يقبل البعض دون البعض وذلك لا يليق بكرم  
أكرم الأكرمين . أو يقبل الكل فيمير حمد هذا القائل وعبادته وحاجته  
مقبول ببركة دعاء غيره ، وكذا القول في الهدى فإن الدعاء مهما كان  
أعم كان إلى الإجابة أقرب (١) .

وهذا أسرار أخرى غير ما تقدم فالنكات والأسرار البلاغية  
لا تتراحم منها ما ذكره ابن القيم في بدائع الفوائد وهو أن الجمع  
يتضمن من الثناء على الرب بسعة مجده وكثرة عبيده وكثرة سائليه  
الهداية ما لا يتضمنه لفظ الأفراد إذ المقام مقام عبودية واقتدار إلى  
الرب تعالى وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانتة وهدايته مما يتناسب  
مع الاتيان بصيغة ضمير الجمع أي نحن معاشر عبيدك مقرون لك  
بالعبودية ، وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه نحن عبيدك ومماليك  
وتحت طاعتك ولا نخالف أمرك فيكون هذا أحسن وأعظم موقعا عند  
الملك من أن يقول : أنا عبيدك ومملوكك ، ولهذا لو قال : أنا وحدي مملوكك  
استدعى مقتته ، فإذا قال : أنا وكل من في البلد مماليك وعبيدك وجند  
لك كان أعظم وأفخم ، لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثير جدا وأنا واحد

(١) انظر : تفسير الفخر الرازي ٣٠٢/١ وحاشية غلب الدين  
الرازي على الكشاف .

منهم وكلنا مشتركون في عبوديتك والاستعانة بك وطلب الهداية منك (٢)

ومنها : أن التمييز بضمير الجمع يفيد موالات المؤمنين بعضهم لبعض وتناصرهم وتعاونهم وأنهم كالجند الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، فالمؤمن لا يذكر عبادة نفسه فقط وإنما يذكر عبادة نفسه وعبادة جميع المؤمنين في كل زمان ومكان فإنه سعى في اصلاح مهمات سائر المؤمنين وإذا فعل ذلك قضى الله مهماته لقوله ﷺ « من قضى لمسلم حاجة قضى الله له جميع حاجاته » فالمؤمن أخو المؤمن يحس بإحساسه يفرح لفرحه ويحزن إذا أصابه مكروه .

ومنها التنبيه على فضل صلاة الجماعة إذ الأولى بالمؤمن أن يؤدي الصلاة في جماعة فإذا قال « نعبد » فالمراد منه ذلك الجمع الذي يهتلى معه .

وفي قوله تعالى « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار » نجد سرا بلاغيا في جمع « الجنة » على « جنات » لأنه قد يرد على الذهن سؤال وهو أن الجنة لما كانت ابدا لدار الثواب ودار الثواب لا تتعدد فما معنى جمع الجنة ؟

والجواب عن هذا أن الجنة وإن كانت ابدا لدار الثواب كلها إلا أنها مشتملة على جنات كثيرة بمثابة المنازل للمؤمنين فمنها الفردوس والمعدن والنسيم وجنة المأوى ودار الخلد ودار السلام . وجميع سبحانه في هذه البشارة بين أعين البدين بالجنات وما فيها من الأنهار

(٢) قوله تعالى « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار »

(٣) قوله تعالى « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار »

(٤) بدائع الفوائد لابن القيم ٣٩/٢ .



والنفسان ، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة ونعيم القلب وقررة العين بمعرفة دوام هذا المعيش أبداً الأبد وعدم انقطاعه (٣) .

وقد يكون الجمع دالاً على الزيادة والشدة أى أن الشيء الواحد قد يعبر عنه بالجمع لشدة وزيادته وتمكبه في النفس كما في قوله تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم » (٤) .

ذكر الزمخشري أن الجمع في « أمانيهم » أشير به إلى الأمانى المذكورة قبل هذه الآية وهي أمانيتهم ألا ينزل على المؤمنين خير من ربهم ، وأمانيتهم أن يردوهم كفاراً ، وأمانيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم أى تلك الأمانى الباطلة أمانيهم (٥) وعلى هذا يكون الجمع هنا على أصله غير محدود به عن الواحد .

ولما كان قوله تعالى « قل هاتوا برهانكم » متصلاً بقولهم « لن يدخل الجنة ... » أنجأ الزمخشري إلى القول بأن جملة « تلك أمانيهم » اعتراض بين الدعوى ودليها .

وقد رد ابن المنير على الزمخشري مستبعداً ما قاله بذكر الدليل فقال : « يبعد هذا الجواب قوله تعالى عقيب ذلك « قل هاتوا برهانكم » فنكتهم صادقين » وقوله تعالى : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فإن البرهان المألوف منهم ههنا إنما هو على صحة دعواهم أن الجنة لا يدخلها غيرهم ويحقق هذا قوله : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه »

(٣) التفسير القيم للامام ابن القيم ١٣٩ .

(٤) البقرة : ١٧٦ .

(٥) الكشاف ١/٣٠٥ .

رابعاً « فانما يعنى الجنة ونعيمها رداً عليهم في نفسهم عن دخولها  
ففى هذا دليل بين على أن الإلهام للتفسير إليها ليس إلا ما طولبوا  
بإقامة البرهان على صحته وهو أمنية واجدة »

ثم يبين السرفى المدول عن الواحد الى الجمع فيقول : والجواب  
القريب أنهم لشدة تمنيتهم لهذه الأمنية ، ومعاودتهم لها وتأكدتها في  
نفوسهم جمعت ليفيد جمعها أنها متأكدة في قلوبهم بالغة منهم كل  
مبلغ والجمع يفيد ذلك وإن كان مؤداه واحداً ونظير هذا قولهم « مما  
حياتنا » (٦) فجمعوا الصفة ومؤداها واحد تأكيداً لثبوتها وتأكيداً  
أى عمله لفرط جوعه كجماعة جاع ، وهذا المعنى أحد ما روى في  
قوله تعالى : « أن هؤلاء لشر ذمة قليلون » (٧) فإنه جمع قليلاً وقد  
كان الأصل افراده فيقال لشر ذمة قليلة كقوله تعالى « كم من فئة  
قليلة » لولا ما قصد إليه من تأكيد معنى القلة بجمعها ، ووجه افادة  
الجمع فى مثل هذا التأكيد أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة فى الأحاد  
فنقل الى تأكيد الواحد وإبانة زيادته على نظرائه نقلاً مجازياً بديعاً (٨)

وذكر الشيخ الطاهر ابن عاشور فى سر الجمع هنا معنى جديراً  
بالقبول وهو أن الجمع هنا مراعى فيه تعدد الأمنية عند الافراد من  
اليهود والنصارى اذ هي كانت أمنية كلم واحد منهم فصارت آماني  
كثيرة بهذا الاعتبار (٩) \*

(٦) أى فى قول الشاعر :

كان قصود كل حين ضمنت  
جواب غزلاً وهو جماعاً

(٧) الشعراء ٥٤

(٨) الانتصاف على الكشف ٣٠٤/١ ، ٣٠٥

(٩) انظر تفسير التحرير والتنوير ٦٧٤/٤ \*

وذكر الزمخشري معنى آخر مؤداه أن الكلام على التشبيه يعني أن أمانهم كهذه فيكون من التشبيه البليغ بحذف مضاف أى أمثال تلك الأمتية أمانهم وقد اعترضه أبو حيان فى البحر المحيط فقال : وفى هذا الوجه قلب الوضع اذ قال : ان أمانهم فى البطان مثل أمنيتهم هذه وفيه أنه متى كان الخبر مشبهابه المبتدأ فلا يتقدم الخبر نحو زيد زهير فان تقدم كان ذلك من عكس التشبيه كقولك الأسد زيد شجاعة (١٠) .

( ١ ) ونقول : لا بأس فى قلب التشبيه إذا كان يقصد من وراءه غرض يلاغى يعود الى التشبه به كغرض المبالغة أو التساوى بين الطرفين فيصلح كل واحد من الطرفين ليكون مشبها ومشبها به ، ولعل هذا الغرض هو المقصود فى هذا المقام فأمنيتهم هذه بأنه إن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى لا تختلف عن أمانيتهم السابقة فى الاعتقاد وثدة التعلق بها ، فيكون القصد الجمع بين الطرفين فى هذا المعنى من غير أن يقصد كون أحدهما ناقصا والآخر زائدا لأن الغرض هو التشابه أى التساوى بين الطرفين فيه .

وقد يشترك اثنان في حكم فيؤدي ذلك الى اتحادهما في نوع،

واحد فيعبر عنهما بالمفرد كما في قوله تعالى « وائن أتيت الذين أوتوا الكتاب بذل آية ما تبعوا قبلك وما أنت بتابع قبلكهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض » فالذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى ، وكل منهما له قبلة تخصه فاليهود تستقبل بيت المقدس والنصارى تستقبل مطلع الشمس فوحد القبلتين في قوله « وما أنت بتابع قبلكهم » وإن كانت مثناء لا اشتراك كلنا القبلتين في البطلان ومخالفتها قبلة الحق فصارا قبلة واحدة في هذا النوع الباطل ، وهذا غلى منوال قوله تعالى « لن نصبر على طعام واحد » مع أنه « من وسلوى » لأنهما من طعام الأرفة فالمراد الوحدة النوعية ، إذ المن والسلوى واحد في أنهما من طعام المترفة والقبيلتان واحدة في أنهما من القبلة الباطلة ، ويرى السمين (١١) في الدر المصون أن توحيد قبيلتهم لأجل المتسابقة في اللفظ أى « متسابقة ما قبله في قوله « ما تبعوا قبلك » ويقصد السمين بالمقابلة ما عرف في علم البديع باسم المشكلة .

وقد يكون الجمع ذالا على تكرير الحدث كما في قوله تعالى « وأركب عليهم صلوات من ربهم ورحمة » (١٢) يقول الزمخشري : الصلاة : الحنن والتعطف فوضعت موضع الرأفة وجمع بينها وبين الرحمة كقوله تعالى : « .. رأفة ورحمة » والذي جعل الزمخشري يفسر الصلوات بالرأفة هو عطف رحمة عليهما ومن المعلوم أن الصلاة من الله على خلقه رحمة فيكون فيه تكرار من عطف المترادفين أحدهما على الآخر قائلا يقع التكرار فسر الصلوات بالرأفة فيكون من عطف المتغايرين وإن كانا متقاربين في المعنى ثم يبين السر البلاغي في جمع الصلاة على

(١١) الدر المصون ١٦٥/٢ .

(١٢) البقرة : ١٤٥ .

« صلوات » وهو افادة التكرير أى تكرير الرأفة فتكون رأفة بعد رأفة كما في لبيك وسعديك أى رأفات متواترة ، وهذا التكرار المستفاد من الجمع فى صلوات يتناسب مع تكرير المصطفى وهو « رحمة » إذ هي تفيد التعظيم كما قال الزمخشري « ورحمة أى رحمة » وهذا يتناسب مع المقام إذ أن الآية سيقت فى جزاء المساكين الذين لهم بهم المصائب فحمدوا الله واسترجعوا فيكون جزاؤهم من الله تعالى دوام الحنو والتعطف عليهم ودخولهم فى رحمته التى وسعت كل شئ .

وقد يأتى المفرد للنص على حكم شرعى كما فى قوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » ففهم من أفراد « المسكين » أن الحكم لكل يوم يفطر فيه طعام مسكين ، ولا يفهم ذلك من الجمع (١٣) .

وقد يجمع الشئ الواحد لتمدّد أحواله وتكررها كما فى قوله تعالى « يسألك عن الأهل قل هي مواثيت للناس والحج » والأهل جمع أهال وإنما جمع وهو مفرد فى الحقيقة باعتبار اختلاف أزمانه وأحواله من حيث كونه هلالا فى شهر غير كونه هلالا فى آخر فيريد من الأهل شهورها وقد يعبر بالهلال عن الشهر لجلوله فيه كما قال :

أخوان من نجد على ثقة      والشهر مثل قلامة الظفر (١٤)

وكذا قوله تعالى « هون شهيد ونكم الشهر فليصمه » فالمراد حين الشهر الهلال على طريق المجاز المرسل الذى علاقه الزمانية لكن

(١٣) الدر المنصور ٢/٢٧٥ .

(١٤) تفسير القرطبي ١/٧١٦ .

فلتتبعن زمن حلول الهلال . فالجمع على هذا من حيث تعدد أحواله وتكرارها ، وقد يكون الجمع من حيث تعدد أحواله ومنازله فيبتدئ أوله الشهر هلالا دقيقا ثم ينهو شيئا فشيئا الى أن يصير بذرا مكتمل الدائرة ثم ينشأ عن النظر وينتهي في آخر الشهر ، وهذا المعنى وهو أن جمع الهلال لتعدد أحواله ومنازله هو الأنسب للمقام لأنهم سألوا عن أحواله هذه فأجيبوا بما هو أهم لهم وأنبغ مما سألوا عنه على طريقة المتكلمين .

وقد يتقدم شيان ومقتضى الظاهر أن يعود الضمير عليهما معنى ولكن الضمير يعود عليهما مفردا وذلك كمنعنى بالحي يفهم من المقام ويقتضيه السياق كما في قوله تعالى : « فانظر الى طعامك وشرابك ثم يتسنه » فقد عاد الضمير في « يتسنه » بمعنى يتغير مفردا مع تقدم شيئين وهما الطعام والشراب أما لكونهما متلازمين بمعنى أن أحدهما لا يكفى به بدون الآخر فصارا بمنزلة شيء واحد حتى كأنه قال فانظر الى غذائك . وقد يعود الضمير على أقرب مذكور فقط وهو الشراب ، وثم جملة أخرى حذفت لدلالة هذه عليها ، والتقدير وانظر الى طعامك ثم يتسنه والى شرابك ثم يتسنه أو يكون سكنت عن تغيير الطعام فتبينها بالاعتنى على الراجح ، وذلك أنه إذا لم يتغير الشراب مع نزعة التفتت اليه فتعلم تغير الطعام أولى أو أنه أفرد في موضع التنبيه (١٥) .

وتجد الوصف يقع مرة مفردا وأخرى جمعا مع أن أوصيف واحد وذلك للفتن في البلاغة كما في قوله تعالى في البقرة : « وقالوا ان تمسنا النار إلا أياما معدودة » وفي آل عمران « معدودات » وذلك أن جمع التكسير غير العاقل يجوز أن يعامل معاملة الواحدة المؤنثة تارة

ومعاملة جمع الاناث تارة أخرى فيقال هذه جبال راسية وهذه جبسات راسيات وقيل : فيه اشارة الى الجمع بين الأصل والفرع اذ الأصل في الجمع بالالف والتاء اذا كن واحد مذكرا أن يقتصر في الوصف على تانيه مفردا كقوله تعالى « فيها سرر مرفوعة » وقد يأتي « سرر مرفوعات » على الجمع فهو فرع عن الأولى « فذكر في « البقرة » على الأصل لكونها أدل وفي آل عمران على الفرع (١٦) .

وهذا ألفاظ لم ترد في القرآن الا مجموعة واذا جرى بها في سياق الافراد عدل عن لفظها الى مرادفها وكان الافراد ينبو منه النظم كلفظة اللب الذي هو العقل كقوله تعالى : « وليتذكر أولوا الألباب » وقوله تعالى : « ولستم في القصص حياة يا أولى الألباب » « واتقون يا أولى الألباب » « وما يذكر الا أولوا الألباب » « فاتقوا الله يا أولى الألباب » « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب » وغير ذلك مما ورد في القرآن الكريم ومثال ما عدل عنها في سياق الافراد الى مرادفها قوله تعالى : « ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

وقد ذكر ذلك ابن الأثير ولم يعل له وإنما مرده الى السخوق السليم ويرى أن هذه اللفظة « لب » ثلاثية خفيفة على النطق ومخارجها بعيدة ليست مستقلة ولا مكروهة وقد تابعه في ذلك صاحب الطراز ولم يزد على ما قتله شيئاً بينما وجدنا الرافعي يذكر العلة لذلك وهي تهئية الانسجام بين حروف اللفظ وتركيبه وتوفير الموسيقى لنظمه وذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمعة ولا فضى الى هذه الشدة الا من اللام الشديدة المسترخية ، فلما لم يكن ثم فصل بين الحرفين يتنهاى جمه هذا الانتقال على نسبة بين الرخاوة والشدة تحسن اللفظة معها

فأستقطها من نظمته بنية على سمة ما بين أوله وآخره ، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة ، وهذا على أن فيه لفظة « الجب » وهي في وزنها ونطقها لولا حين الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشدة في الجيم المضمومة (١٧) .

وبعد أن تفلرت في الآيات التي انتقلت فيها لفظة الألبابيم ومثال تنفري وتأملني بدا لي — والله أعلم فيما أراد من كلامه — أن هناك سرا في اختيار مادتها ، وسرا آخر في اختيار صيغتها . أما سر اختيار مادتها « اللب » دون « الفهم » و « المعرفة » و « العقل » فإن لب كل شيء خالصه وخياره ولب المرء هو قلبه إذ هو خالص ما في الجسم وأفضله إذ هو بؤرة الحس والشعور ومحل النيات والاعتقادات ومنه تؤثر أعضاء الجسم وتنتهي قال ﷺ « إلا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » .

فالقلب أخص من العقل والفساد في الاستعمال فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : « أتاكم أهل اليمن هم أرق قلوبا وألين أفئدة » فوصف القلوب بالركة والأفئدة باللين والآيات التي خوطب الناس بشأنها ونودوا من أجلها مشتملة على آيات ربوبيته وقدرته سبحانه وبديع صنعه في ملكوته ، وعلى أحكام وتشريعات ، وقصص وعظمت بالغات فالمرء عليه أن يحرك هذه الأمور بحقله أولا ثم يتزق في هذا الإدراك ليعيها ويحفظها في قلبه ويمكنها فيه لتكون نورا له تهديه إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ، وتبجده عن الباطل وسبل الغلال ، فلا يكفي أن يعقل المرء هذه الأمور بل يجب أن تكون عقيدة مستقرة في قلبه ويقينا راسخا في نفسه .



فهناك فرق بين ما يظهريه العقل فقط وما يظهريه القلب ويقتضيه  
 به إلى موطن الخس والسفور واليقين وهو القلب فكم من أناس  
 يخفون بعقولهم آثار قدرة الله في تلكوتهم ، ويبيع صمغهم في مخلوقاته  
 ولكن هذه المعرفة لم تصل إلى أمكنة العقيدة واليقين وهو القلب لتكون  
 محورا ويتكرر عليه عمل الجزء وسلوكه ، وقد أخبرنا القرآن بذلك قال  
 تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » (١٨)  
 فهو اقرار باللسان وقد عرفه العقل ، ولكنه لم يصل إلى القلب فهو  
 اقرار عاطل لا جدوى منه لأنه لم يترك أثرا في القلب يجعل المرء  
 يغير من سلوكه ويصنع عقيدته .

وقد تفي الله تعالى الايمان عن الأعراب الذين أقروا بأركان  
 الاسلام بلسانهم من غير موافاة قلوبهم لأن الايمان هو التصديق  
 واليقين الجازم في القلب مع الثقة وطهارة النفس قال تعالى : « قالت  
 الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في  
 قلوبكم » (١٩) .

فذل بهذا على أن حقيقة الايمان لم تستقر في قلوبهم ولم تشربها  
 أرواحهم فالقلب متى تدفق حلاوة الايمان وأمان اليه وثبت عليه  
 لا بد من دفع لتحقيق حقيقته في خارج القلب في واقع الحياة في دنيا  
 الناس . فليزيد أن يوجد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الايمان  
 وما يحيي قلبه في ظاهره من هجرات الكفور وواقع للحياة (٢٠) .

وكم من أناس مسلمين يعرفون الحلال والحرام ويميزون بين الخير

(١٨) الزمر ٢٨ .

(١٩) الحجرات : ١٤ .

(٢٠) في ظلال القرآن ص ٢٣٤٩ .

والشر ولكن سلوكهم يحيد عن هذه المعرفة لعدم تجاوزها الى موطن الاعتقاد واليقين وهو القلب ولم تنتشرها ارواحهم •

ولهذا لم نجد تذييلا في القرآن بلفظ المعرفة أو الفهم وما يشتق منهما هذا — والله أعلم — هو السر في اختيار مادة : « اللب » في القرآن دون المعرفة أو الفهم أو العقل •

أما السر في اختيار صيغتها يلجمع بالاضافة الى ما قلناه الأستاذ الرفاعي فان في ذلك دعوة الى الجماعة المؤمنة كلها ماقران لا يخاطب فردا وانما يخاطب الانسانية كلها ، ثم ان الحسن والتبجح والخير والشر هو ما أجمعت عليه القلوب الصافية انقيه فتحكم بحسه أو بقبحه ، حتى ان الآية التي عدل بها عن اللب الى القلب مفردا لم يكن مرادا بها واحد وانما هي عاءة تشمل كل من له قلب يعي ويدفظ ويوقن ويطمئن •

وهن الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم مجموعة ولم ترد مفردة لفظة الكوب فابن الأثير يرى أن الجمع فيها أحسن من الافراد وإن لم تكن مستتبجة في حال افرادها ، ونقول : ان هذه اللفظة وردت في سياق بيان آنية أهل الجنة التي يتمتعون فيها بالشراب قال تعالى « ويطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين » فالمقام يقتضى الجمع بل جمع الكثرة ، ولعل في تنكيرها ما يفيد التكثير والتحليل ، فالتكثير مستفاد من صيغة الجمع ومن دلالة التنكير ، ويرى الرفاعي أن جمع كوب على أكواب فيه من الظهور والركة والانكشاف وحسن التناسب في النطق ما لم يوجد في المفرد (٢١) •

(٢١) اعجاز القرآن للرافعي ٢٣٢ •

ومن الألفاظ التي آثر النظم القرآني جمعها لفظة « الصوف » فإنها وردت في موضع واحد بلفظ الجمع في قوله تعالى : « ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين » ، وحين احتاج القرآن إلى استعمالها مفردة جاء بما يخالفها في لفظها فأتى بمصادف لها في قوله تعالى : « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » فبدلها لما كانت غير فصيحة في الأفراد .

ويقول صاحب الطراز « فانظر ما بين العهن والصوف من التفاوت في الذوق والركة والرشاقة » (٢٢) .

ولفظة « السماء » وردت مجموعة ومفردة فقد وردت في القرآن ٣١٠ مرة منها ١٢٠ مرة بلفظ السماء مفردا و ١٩٠ مرة بلفظ السموات جمعا بينما ورد لفظ الأرض ومشتقاتها ٤٦١ مرة كلها بلفظ المفرد ولم يذكر لفظ « أرضون » جمعا ولا مرة واحدة (٢٣) .

وهنا يرد على الذهن سؤال وهو : لم جمعوا السماء فقالوا سموات وهلا راعوا فيها ما راعوا في الأرض فإنها مقابلة فما الفرق بينهما ؟

أجاب على هذا السؤال ابن القيم فقال : « لو جمعوا أرضا على قياس جمع التكسير لقالوا أرض كالفلس وأرض كأجمال أو أروض كفلوس فاستقلوا هذا اللفظ إذ ليس فيه من الفصاحة والعذوبة والحسن ما في لفظ السموات ، وأنت تجد السمع ينبو عنه بقدر ما يستحسن لفظ السموات ولفظ السموات يلج في السمع بغير استئذان لمنصاعته وعذوبته ولفظ الأراضي لا يأذن له السمع إلا على كره ولهذا تفادوا من جمعه إذا أرادوه بثلاثة ألفاظ تدل على التعدد كما قال تعالى

(٢٤) الطراز ٤٨/٣ .

(٢٥) القرآن اعجازه وبلاغته للدكتور عبد القادر حسيبي ص ٨٦ .

« خلق سبع سموات ومن الأرض مثلن » كل هذا تناديا من أن يقال: أراض وأرض • هذا الفرق من جهة اللفظ وأما الفرق المعنوي فإن السماء قد يقصد ذاتها فقط وقد يقصد منها معنى الوصف وهو العسلا والرفعة فإن قصد بها ذاتها دون الوصف كان المقام للجمع لتعددتها إذ اراد السموات السبع ومن فيهن من الملائكة •

وإذا قصد بها الوصف بمعنى العلو والرفعة كان المقام للأفراد نحو الأرض على هذا النحو يقصد بها معنى الوصف وهو « التعت والسفل » دون أن يقصد ذواتها وأعدادها وحيث جاءت مقصودا بها الذات والمعد أتى بلفظ يدل على البعد أى البعد عن الجمع المستثقل كقوله : « ومن الأرض مثلن » •

وجاءت فى آية أخرى قصد بها الذات والمعد وتحاشى النظم القرآنى ذكر المعد أى الجمع للاستئصال ونحو الذوق والسمع عنه ، ودل عليه أى على المعد بلفظه « جميعا » فى قوله تعالى « والأرض جميعا قبضته » فالأرض متبداً و « قبضته » خبر و « جميعا » حال وهى دالة على أن المراد بالأرض الأرض الأرضون والسياق يؤيد هذا لأنه فى مقام التفضيم والتعظيم ، وطلاقة القدرة الإلهية ويعطف الجمع عليها « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات » يقول الزمخشري ومع القصد الى الجمع يعنى فى الأرض وأنه أريد به الجمع وأكدته بالجمع أتبع الجميع مؤكدة قبل مجيء الخبر ليعلم أول الأمر أن الخبر الذى يرد لا يقع عن أرض واحدة ، ولكن عن الأرض كآء (٢٤) •

ومن أمثلة ما جاءت السماء مقصودا منها الوصف وهو العلو والرفعة قوله تعالى : « أمنتهم من غى السماء أن يخرسف بهم الأرض

هنا هي تَمُور أُم أَمَنَتُم من في السماء. أن يرسل عليكم حاصبا « كيف أفردت هنا لما كان المراد الوصف الشامل والفريق المطلق ولم يرد سماء معينة مخصوصة وقوله تعالى : « فو رب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون » ارادة لهذين الجنبين أى رب كل ما علا وكل ما سفل فلما كان المراد عموم ربوبيته أتى بالاسم الشامل لكل ما يسمى سماء وكل ما يسمى أرضا .

وجاءت مقصودا منها ذاتها ومن غيبن من الملائكة فجُمعت في قوله تعالى : « يسبح لله ما في السموات وما في الأرض » في جميع الصور لما كان المراد الاخبار عن تسبيح سكانها على كثرتهم وتباين مراتبهم لم يكن بد من جمع محلهم ونظير هذا جمعها في قوله « وله من في السموات ومن في الأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون » وكذلك جاءت مجموعة في قوله « تسبح له السموات السبع » اخبارا بأنها تسبح له بذواتها وأنفسها على اختلاف عددها . وأكد هذا المعنى بوصفها بالعدد ولم يقتصر على السموات فقط بل قال : « السبع » .

وكل ما أخبر عنه سبحانه من نزول الرزق الصنى من السماء أو أسبابه من نزول الغيث يراد منها الوصف أى العلو والرفعة دون ارادة معنى الذات والتعدد كما في قوله تعالى : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » فالرزق : المطر وما وعدنا به : الجنة وكلاهما في هذه الجهة لا إثنين في كل واحدة من السموات فكان لفظ الافراد أليق بها . ولكن قد ورد لفظ السماء في سياق نزول الرزق مرة مفردا ومرة جمعا الافراد في قوله تعالى في سورة يونس « قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار » والجمع في سبورة

سبأ في قوله تعالى « قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله »  
بفما الفرق بين الآيتين ؟

ونقول : ان الآيتين وردتا في سياقين مختلفين فالآية الأولى  
وردت في سياق الاحتجاج عليهم بما هو مشاهد أمامهم ولا يمكنهم  
انكاره من كون الرب رازقهم ومالك أسماعهم وأبصارهم لأن نزول  
الرزق من قبل هذه السماء التي يشاهدونها بالحواس أمر لا يمكنهم جرده  
ولذلك كان جوابهم مباشرة الاقرار بأن فاعل هذا هو الله « فيقولون  
الله » فهو رزق حسي وهو نزول المطر من السماء لأنه ينزل من السحاب  
وهو يسمى سماء لعلوه فالمقام إذن يناسبه الافراد أما الآية الثانية  
فالمراد من الرزق فيها هو الرزق الحسي والمعنوي فهو أعم من الأولى  
الرزق الحسي للأبدان والمعنوي للقلوب والأرواح وهو ما يتنزل من  
السموات من الوحي والرحمة والألطاف والموارد الربانية والتنزلات  
الالهية ، ولا شك أن هذا الرزق يتنزل من السموات السبع على أيدي  
الملائكة الكرام فالمقام إذن يناسبه الجمع ، ولما كان القوم المخاطبون  
غير هادين بنزول الرزق المعنوي من السموات السبع لم يترك لهم  
الجواب بل أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها فقال : « قل من يرزقكم  
من السموات والأرض قل الله » ولم يقل كما قال في الأولى : «سقولون  
الله» (٢٥) .

ويرى الامام أبو يحيى الأنصاري أن السماء جمعت دون الأرض  
للاستفاد بجميع آحادها باعتبار ما فيها من نور كواكبها وغيره بخلاف  
الأرض إنما ينتفع بواحدة من آحادها وهي ما نشاهده : منها (٢٦)

(٢٥) بدائع الفوائد لابن القيم ١١٧/١ ، ١١٨ ، بتصرف .

(٢٦) فتح الرحمن ص ٤٨ .

ويرى القرطبي أن السماء جمعت لأنها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الأخرى ووجد الأرض لاتحاد جنسها لأنها كلها تراب (٢٧) وهذا قريب مما قاله ابن القيم ففي قوله تعالى : « قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله » جمعت السماء هنا لأن المازاد نفى علم الغيب عن كل من هو في واحدة واحدة من السموات أي أن المازاد نفى علم الغيب عن كل من في أجناسها .

فاذا أريد بها الذات قصد منها التعدد أي تعدد أجناسها وإذا أريد بها الوصف قصد بها الجنس المطلق وهو كل ما علا وارتفع ، وفي قوله تعالى : « وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم » .

أنت مجموعة هنا لحكمة ظاهرة وهي تعلق الظرف بها في اسمه تبارك وتعالى من معنى الألوهية فالمعنى وهو الإله وهو المعبود في كل واحدة واحدة من السموات (٢٨) فأخبر عن سعة ملكه ومحلته وهو السموات كلها والأرض وكثرة عابديه في كل منهما وسعة علمه بالسرا والجهر لكل من في السموات والأرض . وهذا يتناسب الجمع .

الرياح - والريح :

من الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم مفردة وجمعا لأسرار بلاغية الريح والرياح فحيث كانت في سياق الرحمة أتت

(٢٧) تفسير القرطبي ١/٥٧٢ .

تفسير الشعراوي ٩/٧٠٥ .

(٢٨) بدائع الفوائد ١/١١٦ .

مجموعة وحيث وقعت في سياق العذاب إنتت مفردة • بين  
السرفى ذلك الامام ابن القيم فقال : ان رياح الرحمة مختلفة الصفات  
والمنافع ، واذا هاجت منها ريح أنشأ لها ما يقابلها وما يكسر  
سورتها ويصدق حدتها فينشأ من بينهما ريح لطيفة تفسح الحيوان  
والنبات فكل ريح منها في مقابله ما يعد لها يريد سورتها فكانت في  
الرحمة ريحا وأما في العذاب فانتها تأتي من وجه واحد لا يقوم لها  
شيء ولا يعارضها غيرها حتى تنتهي الى حيث أمرت لا ترد سورتها  
ولا تكسر شدتها فتمتثل ما أمرت به وتصيب ما أرسلت اليه ، ولهذا  
وصف - سبحانه - الريح التي أرسلها على عاد أنها عقيم فقال « وفي  
عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم » ( الذاريات : ٤١ ) ( ٢٩ ) •

ويذكر القرطبي سرا بلاغيا قريبا مما قاله ابن القيم فيقول :  
« أفردت ريح العذاب لأنها شديدة ملتزمة الأجزاء ، كأنها جسم  
واحد » ( ٣٠ ) « مرجع شدتها أنها أرسلت من جهة واحدة لتصيب قوما  
أو تهلكهم بقسرة الله تعالى وقضاء أمره فلا بد من نفاذه ، ومن ثم  
لا تعارضها ريح أخرى فتكسر من حدتها أو تقلل من غضفها الى أن  
يقضى الله أمرا كان مفعولا •

وهناك سر آخر في دلالة الرياح بالجمع على الخير يفهم من  
قوله تعالى وهو يعدد نعمه لعباده « وتصريف الرياح » ومعنى  
التصريف من التحويل والتغيير أى توجيه الرياح الى نواح مختلفة  
هبوء الى الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب ، وهذا الاختلاف  
لم يجعل للهواء مسارا رتيا ، وعندما تتأمل عملية الاستطراق في

( ٢٩ ) المرجع السابق ١/ ٢١٨ لا تنسوا ان تقرأوا سورة العنكبوت

( ٣٠ ) تفسير القرطبي ١/ ٥٧٩ •



«الهواء نجد أنها تعطى اعتدالا مزاجيا للهواء فمجردة يأتي من ناحية حارة ليهب على المناطق الباردة فيكسر من حدة البرد ، ومرة يأتي من المناطق الباردة فيهب على المناطق الحارة فيخفف من شدة الحرارة ، وهذا التصريف نعمة من نعم الله فالجمع إما باعتبار اختلاف مسار الرياح من جهات متعددة مما يؤدي إلى تقابلها وكسر حدتها أو باعتبار نوعها من حيث الجهة التي تهب منها فتكون رياحا حارة أو رياحا باردة رطبة أو جافة(\*)» .

وبالاستقراء والتتبع لآيات القرآن الكريم التي وردت فيها هذه اللفظة في حالي الأفراد والجمع وجدنا أن الريح إذا وقعت في سياق الرحمة جاءت مجموعة ، وإذا وقعت في سياق الشدة والعذاب جاءت مفردة ولم يشذ هذا الاستقراء الا في آية واحدة في سورة يونس وهي قوله تعالى : « هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وغرخوا بها جاءت ريح عاصف » (٣١) .

فقد ذكر في الآية « ريح » بالأفراد مع الرحمة فقال « بريح طيبة » يعلى ابن القيم (٣٢) لذلك فيقول : « لأن تمام الرحمة هناك - أي في البحر - إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها فان السفينة لا تسير الا بريح واحدة من وجه واحد سيرها ، فاذا اختلفت عليها الرياح وتصادمت وتقابلت كان ذلك سببا في تلاطم الأمواج فيضطرب سير السفينة فتتناقضها الأمواج هنا وهناك مما يؤدي إلى الهلاك ،

(\*) تفسير الشعراوي ٧٠٥/٩ .

(٣١) سورة يونس آية رقم ٣٢ .

(٣٢) بدائع الفوائد .

فالمطلوب هنا ريح واحدة لا رياح — وأكد هذا المعنى بوصفها بالطيب  
احتراسا ودفعاً لتوهم أن تكون ريحا عاصفة بل هي مما يفرح لطيبها •

ومما يؤيد ما ذكرناه أنه لما وصف الريح اللينة بالطيب جاء بما  
يقابلها بالريح المدمرة شديدة الهرب ووصفها بالعاصف وهو وصف  
خاص بالريح ولذلك لم تلحقه علامة تأنيث بخلاف وصف ريح الخير  
بالطيب فقد لحقتها علامة التأنيث « وجرين بهم بريح طيبة » لأنها  
ليست وصفا خاصا للريح •

وهناك آية أخرى في سورة « ص » وردت مفردة في سياق  
الرحمة ، في قوله تعالى : « فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء  
حيث أصاب » ووصفت الريح بأنها « رخاء » أي لينة لا زعزعة في  
هبوبها « رخاء » انتصبت على الحال من ضمير تجري ، والحال وصف  
في المعنى وقد وصف الله قبل ذلك في سورة الأنبياء « الريح » بأنها  
عاصفة في قوله تعالى : « ولسليمان الريح عاصفة » فأية سورة « ص ».  
مبينة لمعنى تسخير الريح لسليمان •

والمعنى : سخرنا لسليمان الريح التي من شأنها العصف فذللتها  
له لتكون ريحا لينة لا زعزعة في هبوبها وفي وصفها بقوله : « تجري  
بأمره » دليل على أن عصفها يصير إلى لين بأمر سليمان أي بدعائه  
أو بعزمه ورغبته لأنها لا تصلح له أن تكون عاصفة بحال من الأحوال  
فوصف الريح بالعصف يناسب أفرادها لأن الريح العاصفة تكون سببا  
في وقوع العذاب والهلاك لشدتها ولعدم وجود ما يعارضها من رياح  
أخرى فأراد الله تعالى أن يجعل من هذه الريح العاصفة المدمرة ريحا  
لينة ذلولة منقادة لأمر سليمان عليه السلام ثم إن هذه الريح التي  
سخرها الله لسليمان هي الريح التي تأتي من وجه واحد لا يعارضها  
تقيرها وهي الريح العاصف وذلك حتى يتم التسخير والانتقاد لسليمان

عليه السلام حيث جعلت مطية له وذلك يقتضى أن تجرى في اتجاه واحد لا يعارضها شيء ولا يعوق جريها ريح أخرى مقابلة لها .

ولذلك وصفت بأنها « رضاء » دفعا لتوهم أن تكون شديدة عاصفة وإنما هي لينة ومع لينها فهي سريعة بحيث يكون لسليمان عليه السلام السعة في تصريفها فيذهب بها حيث يشاء .

ولنأت بطائفة من الآيات التي وردت فيها الريح مجذوعة في سياق الرحمة . قال تعالى : « وتصريف الرياح والسحب المسخر بين السماء والأرض » ( البقرة : ١٢٤ ) . « وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته » ( الأعراف : ٥٧ ) « وأرسلنا الرياح لواقح » ( الحجر : ٢٢ ) . « ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات » ( الروم : ٤٦ ) . « الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا » ( الروم : ٤٨ ) .

وهن الآيات التي ذكرت في سياق العذاب غائت فيها الريح مفردة قوله تعالى « فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات » ( غصات : ١٦ ) . « فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تتروها » ( الأحزاب : ٩ ) . « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » ( الحاقة : ٦ ) . « وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم » ( الذاريات : ٤١ ) « يا هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم » ( الأحقاف : ٢٤ ) . « كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم » ( آل عمران : ١١٧ ) . وغير ذلك من الآيات .

الظلمات والنور : سبل الباطل وسبيل الحق — الشوائب واليمين هذه الفاظ وردت في القرآن منها ما ورد مفردا ومنها ما ورد مجزوعا ولكل مقام يخصه ، ويفهم فيه أسرار ولطائف .

فالظلمات ذكرت في القرآن مجموعة والنور ذكر مفردا قال تعالى : « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » (الأنعام : ١) •

وورد أيضا « سبل الباطل » مجموعة ، وسبيل الحق مفردا قال تعالى « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ( الأنعام : ١٥٣ ) وجمع الله تعالى جهة « الشمال » وأفرد جهة « اليمين » قال تعالى : أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفياؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون •

يقول جابر الله الزمخشري عند تفسيره لقوله تعالى : « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » : فإن قلت : لم أفرد النور ؟ قلت : للقصد إلى الجنس كقوله تعالى : « والملك على أرجائها » ( الحاقة : ١٧ ) أو لأن الظلمات كثيرة لأنه ما من جنس من أجناس الأجرام الا وله ظل ، وظله هو الظلمة بخلاف النور فإنه من جنس واحد وهو النار » (٣٣) •

فالزمخشري أشار في تعليقه هذا إلى أن الظلمات جمعت لتعدد مصادرها وهي كل أجناس الأجرام الموجودة في الوجود ، لأن الظلمة عرض وهي لا تقوم بذاتها ، والنور مصدره واحد وهو النار ، ولم يرتض هذا التعليل الشيخ الطاهر ابن عاشور مبينا أن القرآن الكريم انما جمع « الظلمات » وأفرد « النور » اتباعا للاستعمال ، لأن لفظ « الظلمات » بالجمع أخف ، ولفظ النور بالافراد أخف ولذلك لم يرد لفظ « الظلمات » في القرآن إلا جمعا ، ولم يرد لفظ النور الا مفردا •

وهما معا ذالان على الجنس والتعريف الجنسى يستوى فيه المفرد والجمع فلم يبق للاختلاف سبب الا اتباع الاستعمال خلافا لما فى الكشاف (٣٤) .

فابن عاشور أرجع العلة فى ذلك أى فى جمع الظلمات وافراد النور وان كانا مستويين من حيث دلالتها على الجمع الى أمر ذوقى وهو أن الذوق يستشعر الخفة فى جمع الظلمات وافراد النور والى اتباع منهج العرب فى الاستعمال وعلى أية حال فاننا لا نقلل من تعليل الزمخشري فهو تعليل مقبول منترع من الواقع المشاهد ، ولا نقلل أيضا من تعليل الشيخ الطاهر ابن عاشور فكلاهما مجتهد فى التأويل واستخراج المالك على كل حال .

وكما قلنا قبل ذلك ان النكات البلاغية لا تتراحم ولذل وجبة هو مولياها فالشيخ ابن عاشور اكتفى بما قاله الجاحظ حين التفت الى هذه الظاهرة فى أسلوب القرآن الكريم حين قال : « وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وبغيرها أحق بذلك منها ، ولغظ القرآن الذى خزل عليه أنه اذا ذكر « سبع سموات » لم يقل : « الأرضين » ألا تراه لا يجمع الأرض على « أرضين » ولا « السمعم » على « أسماع » (٣٥) .

أما ابن القيم فقد ذكر كلاما طيباً فى الناس العلة لهذه الظاهرة وبيان أسبابها وقد هداه الى ذلك ما هو متبع فى منهجه فى تفسير القرآن بالقرآن أو بالسنة النبوية الشريفة أى بالمأثور ، وليس هذا هو كل منهجه فى تفسير القرآن بل له اجتهادات وتأويلات فى الكشف عن أسرار نظم القرآن الكريم وبيان دقة تعبيره .

(٣٤) التحرير والتنوير .

(٣٥) البيان والتبيين ٤٠/١ .

يقول ابن القيم : بعد أن ذكر الآيات السابقة في جمع «الظلمات» ،  
 وأفراد «النور» وجمع سبل الباطل وأفراد سبيل الحق ، وجمع  
 الشماثل وأفراد اليمين يقول : والجواب عنها يخرج من مشكاة واحدة  
 وسر ذلك — والله أعلم — أن طريق الحق واحد كما قال تعالى : « هذا  
 صراط على مستقيم » ونظيره قوله : « وعلى الله قصد السبيل » أي  
 السبيل المقصد الذي يوصل إلى الله ، المقصود : أن طريق الحق واحد  
 إذ مرده إلى الله الملك الحق ، وطرق الباطل متعددة ومتشعبة فانها  
 لا ترجع إلى شيء موجود ولا غاية لها يوصل إليها .. وطريق الحق  
 بمنزلة الطريق الموصل إلى المقصود ، فهي وإن تنوعت فأصلها طريق  
 واحد .

ولما كانت الظلمة بمنزلة طرق الباطل ، والنور بمنزلة طريق  
 الحق أفرد النور وجمعت الظلمات ، وعلى هذا جاء قوله تعالى « الله  
 ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم  
 الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » (٣٦) فوجد ولي الدين  
 آمنوا وهو الله الواحد الأحد وجمع الذين كفروا لتعددتهم وكثرتهم وجمع  
 للظلمات وهي طرق الضلال والغي لكثرتها واختلافها ووحد النور وهو  
 دينه الحق وطريقه المستقيم الذي لا طريق إليه سواه قال تعالى :  
 « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن  
 سبيله » ( الأنعام : ١٥٣ ) .

فوجد الصراط وأضافه إليه لافادة تعيينه واختصاصه ، ووصفه  
 بالاستقامة يتضمن قربه ، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين  
 نقطتين وكلما تعوج طال وبعد ، وأما طرق أهل الغصب والضلال فانه  
 سبحانه يجمعها .

فابن القيم استند في هذا التفسير الى ما روى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال « خط لنا رسول الله ﷺ خطا وقال : هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن يساره ، وقال : هذه سبيل ، وعلى كل سبيل شيطان يدعو اليه ثم قرأ الآية » وأن هذا صراطى .. » .

ولما كانت « اليمين » جهة الخير والصلاح وأهلها هم الناجون أفردت ولما كانت « الشمال » جهة أهل الباطل وهم أصحاب الشمال جمعت في قوله : « عن اليمين والشمال » ( النحل : ٤٨ ) .

وقيل ان « الشمال » جمعت في الظلال وأفرد « اليمين » لأن الظل حين ينشأ يكون في غاية الطول يبدو كذلك ظلا واحدا من جهة اليمين ثم يأخذ في النقصان ، وأما اذا أخذ في جهة الشمال فإنه يترأى شيئا قسريا ، والثاني منه غير الأول .. فصار كل جزء منه كأنه ظل فحسن جمع الشمال في مقابلة تعدد الظلال ، وهذا معنى جيد بل هو الأحق أن نأخذ به اذ هو الأنسب لمعنى الآية والالتصق بسياقها لأنها إنما سبقت لبيان قدرة الله في خلق ظلال الأشياء ، ودعوة الخلق الى تأملها ، ولم يرد ذكر لأهل الباطل أو الضلال .

ولما كان في القرآن آيات جاءت فيها لفظة الشمال مفردة كقوله تعالى : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال » وقوله تعالى : « عن اليمين وعن الشمال قعيد » ( ق : ١٧ ) وجاءت لفظة اليمين مجمعة في قوله تعالى : « ثم لا تاتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم » ( الأعراف : ٧٧ ) .

فابن القيم بين الأسرار التي دعت الى هذا التعبير فقال : جاءت الشمال مفردة في الآية الأولى لأن المراد أهل هذه الجهة وهم صيرهم وماكلهم الى جهة واحدة وهي جهة الشمال مستقر أهل النار ولأن الطرق الباطلة وأن تعددت فغايتها الى طريق الجحيم وهي جهة الشمال وجاءت

مفردة أيضا في الآية الثانية لأنه لما كان المراد أن لكل عبد شعيدين  
قعيدا عن يمينه وقعيدا عن شماله يحصيان عليه الخير والشر فلا معنى  
للجمع هنا .

وجاءت لفظة اليمين مجموعة في الآية الثالثة لأن الجمع هنا في  
مقابلة من يريد الشيطان اغواءهم فكانه أقسم أن يأتي كل واحد واحد  
من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، ولا يحسن هنا عن  
يمينهم وعن شمالهم بل الجمع هنا في مقابلة الجملة بالجملة المتضمن  
توزيع الأفراد ، ونظيره : « فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق »  
( المسائدة : ٦ ) ( ٣٧ ) .

#### المشرق والمغرب وتثنيتهما وجمعهما :

تأتى لفظة المشرق والمغرب في القرآن مرة مفردة كما في قوله  
تعالى : « رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذوه وكيلا » ( الزمر :  
٩ ) وتارة تأتي مثناة كما في قوله تعالى « رب المشرقين ورب المغربين »  
( الرحمن : ١٧ ) وتأتى جمعا كما في قوله تعالى : « فلا أقسم برب  
المشرق والمغرب انا لقادرون » ( المعارج : ٤٠ ) وقد تأتى لفظة  
المشرق فقط ويحذف مقابلها « المغرب » فما الأسرار البلاغية التي  
تفهم من هذا الأسلوب في مواقفه المتعددة ؟

يقول شيخ الاسلام أبو يحيى زكريا الأنصاري : ان القرآن  
الكريم نزل على المعهود من أساليب كلام العرب وفنونه ومنها : الاجمال  
والتفصيل ، والذكر والحذف والجمع والتثنية والأفراد باعتبارات



مختلفة فأفرد وأجمل في المزمّل بقوله : « رب المشرق والمغرب » أراد  
مشرق الصيف والشتاء ومغربهما .

وقال ابن القيم إن المراد من الافراد : أفقا المشرق والمغرب أي  
جهة كل منهما التي ترى في الأفق ، وثني وفصل في الرحمن بقوله  
« رب المشرقين ورب المغربين » أراد « شرفي الصيف وأشباه » ومغربهما  
وفصل ابن القيم ما قاله الأنصاري بقوله : « حيث منيا كان المراد مشرقى  
صعودها وهبوطها ومغربيهما فانها تبتدىء صاعدة حتى تنتهى إلى  
غاية أوجها وارتفاعها ، فهذا مشرق صعودها وينشأ منه فصلا الخريف  
والشتاء فجعل مشرق صعودها بجعلته مشرقا واحدا ومشرق هبوطها  
بجعلته مشرقا واحدا ويقابلها مغرباها وجمع المشارق والمغارب لإرادة  
تعدد مشارق الشمس ومغاربها بتعدد الأيام فلها ثلثمائة وستون مشرقا  
ولها نفس العدد مغربا وقيل لها ثلثمائة وخمسة وستون « شرقا  
ومثلها مغربا على عدد أيام السنة الشمسية تطلع في كل يوم في كوة  
منها وتغيب في كوة (٣٨) » .

وذكر المشارق فقط في الصفات قيل : للاكتفاء بذكر أحدهما فإن  
في ذكره دليلا على حذف الآخر أي و « رب المغرب » كقوله تعالى  
« سراييل تنقيكم الحر » أي والبرد يحذف البرد اكتفاء بذكر الحر .

أما وجه مناسبة ذكر كل موضوع من الافراد والثنائية والجمع  
وتنوعه في سياقه واختصاصه به فقد ذكر ابن القيم كلاما دقيقا كشف  
فيه عن دقة السياق في إثبات صيغة على الأخرى ، ورأى أنها في مكانها  
الذى لا يصلح فيه غيرها .

فيقول : « وأما اختصاص كل موضع بما وقع فيه فلم أر أحدا

تعرض له ولا فتح يابه وهو يحمد الله بين من السياق، وهذا يتم عن  
اعتباره بطلمه وثقته بنفسه .

ثم يقول : « تتأمل وروده مثلي في سورة الرحمن لما كان مساق  
السورة مساق المائدة المزدوجات فقط أولا نوعي الابداع وهما الخلق  
والتعظيم ، ثم ذكر سراجي العالم ومظهرى نوره وهما الشمس والقمر  
ثم ذكر نوعي النبات ما أقدم منه على ساق ، وما انبسط منه على وجه  
الأرض وهما : « النجم والنسج » ثم ذكر نوعي السماء المرغوة  
والارض الموضوعة وأخير أنه رفع هذه ووضع هذه ، ووسط بينهما ذكر  
الميزان ، ثم ذكر العدل والظلم في الميزان فامر بالعدل ونهى عن الظلم  
ثم ذكر نوعي الخارج من الأرض وهما : « الحبوب والثمار » ثم ذكر  
خلق نوعي المظلمين وهما : « نوع الانسان ونوع الجن » ، ثم ذكر  
نوعي المشرقين ونوعي المغربين ، ثم ذكر بعد ذلك البحرين : الملح  
والعذب .

فتأمل حسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السورة وتسلالة  
ورودهما لذلك وقد ذكرنا في اللفظ مفردا أو مجموعة تجد السمع  
ينبى عنه ويشهد للعقل بصانفته للظلم .

ويبين وجه التناسب في ورودهما مفردين واختصاصهما بهذا  
الموضع في سورة المزمل هي قول : « وتأمل ورودهما مفردين في هذه  
السورة لما تضمنهما فكر الليل والنهار فامر بمؤله بقيام الليل » ثم  
أخبره أن له في النهار سبعا طويلا ، ثم تقدم فكر الليل وما أدر به  
فيه : وذكر للنهار وما يكون منه فيه عقب ذلك بفكر المشرق والمغرب  
الذين هما مظهر الليل والنهار ، فكان ورودهما مفردين في هذا  
السياق أحسن من التثنية وانجس لأن ظهور الليل والنهار هما وليحد  
فالنهار أبدا يظهر من المشرق ، والليل أبدا يظهر من المغرب .

ويقول : ثم تأمل مجيئهما مجموعين في سورة المارج في قوله « فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين » لما كان هذا القسم في سياق سعة ربوبيته وإحاطة قدرته ، والمقسم عليه أذهاب هؤلاء والأتيان بخير منهم ذكر المشارق والمغارب لتضمنهما انتقال الشمس التي هي أحد آياته العظيمة الكبيرة ونقله — سبحانه — لها وتصريفها كل يوم في مشرق ومغرب فمن فعل هذا كيف يعجزه أن يبدل هؤلاء ، وينقل إلى أمكنتهم خيرا منهم .

وأياها فان تأثير مشارق الشمس ومغاربها في اختلاف أحوال النباتات والحيوان أمر مشهور ، وقد جعل الله تعالى ذلك بحكمته سببا لتبدل أجسام النبات وأحوال الحيران وانتقالها من حال إلى غيره ، وتبدل الحر بالبرد ، والبرد بالحر ، والصيف والشتاء إلى سائر تبدل أحوال الحيوان والنبات والرياح والأمطار والثلوج وغير ذلك من التبدلات والتغيرات الواقعة في العالم بسبب اختلاف مشارق الشمس ومغاربها فكيف لا يقدر مع ما يشهده من ذلك على أن يبدل خيرا منهم وأكد هذا المعنى بقوله : « وما نحن بمسبوقين » — فلا يليق بهذا الموضع سوى الجمع .

ثم تأمل كيف جاءت أيضا في سورة الصافات مجموعة في قوله « رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق » ( الصافات : ٥ ) لما جاءت مع جملة الربوبيات المتعددة ، وهي السموات والأرض وما بينهما كان الأجسن مجيئها مجموعة لينتظم مع ما تقدم من الجمع والتعدد .

ثم ذكر السر في اقتصارها على لفظ المشارق دون المغرب مبينا أن المقام يقتضى ذلك ، فان المشارق مظهر الأنوار ، وأسباب انتشار

الحيوان وحياته وتصرفه ومعاشه ونسيبائه فهو إنشاء مشهور مقدمه  
بين يدي الرد على منكرى البعث .. وكان الاختصار على ذكر المشارق  
ههنا في غاية المناسبة للغرض المطلوب (٣٩) .

وفي الآية وجه آخر من التناسب لما يعقب هذه الآية من الحديث  
عن الزينة في قوله تعالى : « ان زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب »  
اذ الزينة انما تكون غالبا بالضياء والنور ، وهما ينشئان من المشرق  
لا من المغرب (٤٠) .

درجة - ودرجات :

في قوله تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى  
الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين  
بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل  
الله المجاهدين على القاعدین أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة  
وكان الله غفورا رحیما » حكم الله تعالى بعدم الاستواء بين القاعدین  
غير أولى الضرر والمجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ثم فضل  
المجاهدين على القاعدین درجة ، وكل منهما المفضل والمفضل عليه وعد  
الحسنى وهى الجنة ثم ذكرت الآية بعد ذلك فضل المجاهدين على  
القاعدین أجرا عظيما ، وبين هذا الأجر بأنه درجات منعم ومغفرة ورحمة .  
وهنا نتساءل من المفضل ومن المفضل عليه في الآيتين ؟ وما المراد  
من الدرجة والدرجات وما سر افرادها أولا وجمعها ثانيا ؟  
والاجابة على هذا نقول : اختلف المفسرون في ذلك ، فلنذكر  
آراءهم بايجاز ثم نرجع ما نراه أنسب للمقام .

(٣٩) بدائع الفوائد ١/ ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٤٠) فتح الرحمن ص ٤٧٧ .

ذهب بعض المفسرين إلى أنه القاعدون الأضرأ ويتساوون في  
الاجر والدرجة مع المجاهدين في سبيل الله استنادا إلى ما يفهم من  
نفي التساوي بين القاعدون وغيرهم أولى الضرر والمجاهدين في سبيل  
الله بأمرهم وأنفسهم واستنادا إلى ما روى في الحديث الشريف عن  
النبي ﷺ عند انصرافه من بعض غزواته أنه قال : « لقد خلفتم بأدينتي  
أفرااما ما سرتهم مسيرا ولا قطعتم وأديا الا كانوا معكم أو نكح  
أقوام حبسهم العذر » .

وقوله ﷺ « إذا مرض العبد قال الله عز وجل اكتبوا له أجر ما  
كان يعمل في الصحة إلى أن يبرأ » ، وعلى هذا يكون المراد من قوله :  
« القاعدون » في قوله تعالى « فضل الله المجاهدين على القاعدون درجة  
هم القاعدون غير أولى الضرر المذكورون في أول الآية » .

ويستون المراد بقوله : « وفضل الله المجاهدين على القاعدون اجرا  
عظيما » هم القاعدون أيضا غير أولى الضرر ذكرهم ثانيا لمزيد البيان  
والمبالغة والتوكيد والتوسعة في العرض والزيادة في الترغيب ، وعلى  
هذا تكون « درجة » بالافراد مساوية لمفرد « درجات » بالجمع لأن  
الافراد يقيده الجنس المعنوي الذي لا افراد له ، وثانيه يقيده التعظيم ،  
وعلى هذا يكون المفضل والمفضل عليه في الآيةين وهذا المفضل  
هم المجاهدون في سبيل الله والمفضل عاينه هم القاعدون غير أولى  
الضرر .

ويرى بعضهم أن « درجة » بالافراد تختلف في دماها عن  
« درجات » بالجمع ، فالدرجة لبيان فضل المجاهدين على القاعدون أولى  
الضرر ، وذلك لاشتراكهم في النية وتفضيل المجاهدين عليهم أي على  
القاعدون الأضرأ بمباشرة العمل بدليل أن الله تعالى قال : « وكلا وعد  
الله الحسنى » وعلى هذا يكون المفضل عليه أولا غير المفضل عليه ثانيا  
لذ المفضل عليه أولا هم القاعدون أولا الضرر ، والمفضل عليه ثانيا هم

بالمجاهدين غير أولى الضرر وعلى هذا تكون جملة « فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة » للاستئناف لأن الله تعالى لم يحكم بالتفاوت بين المجاهدين ، والقاعدين غير الأضراء فكان سائلاً قال : فما حال المجاهدين بالنسبة إلى الأضراء وغيرهم فكان قوله « أولاً : » « فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة » أي القاعدين الأضراء ، « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات .. » « جواباً على هذا السؤال المقهر ويكون المراد بالقاعدين هنا غير الأضراء ممن لا عذر لهم فيكون التفاوت بينهم كثيراً فيناسبه الجمع . »

وذهب بعضهم إلى أن المراد من الدرجة بالأفراد هي الدرجة في الدنيا ، ويكون أراد بالفضل الأول ما خولهم في الدنيا من الظفر والخنيمه وجميل الذكر ، وبالفضل الثاني ما يتخولهم في الآخرة من الفوز بالجنة وتعيمها المقيم ، وثبه بأفراد الدرجة في الأول وجمعها في الثاني على أن ثواب الدنيا في جنب ثواب الآخرة يسير ، وعلى هذا يكون أفرادها وتكثيرها للتقليل ، وجمعها وتكثيرها للتكثير والتعظيم .

ونقول : إن الآية اشتملت على الإجمال والتفصيل والتقدير والإطلاق ، والتدرج والترقي أما اشتمالها على الإجمال والتفصيل فقد أجملت الآية في صدرها فضل المجاهدين على القاعدين غير أولى الضرر بنفي الاستواء بينهما .

ثم بينت وفصلت فضل المجاهدين أولاً على القاعدين الأضراء وفضلهم ثانياً على غير الأضراء ممن لا عذر لهم أما اشتمالها على التقيد والإطلاق فقد قيد المجاهدين أولاً بالأموال والأنفس وأطلقهم ثانياً . فيكون المراد من يكون مجاهداً على الإطلاق في كل الأمور يعني في عمل الظاهر وهو الجهاد بالنفس والمال ، وفي عمل القلب وهو صرف القلب عن الالتفات إلى غير الله إلى الاستغراق في طاعة الله وهي

أشرف أنواع الجهاد وكما قال عليه الصلاة والسلام «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» .

فلما كان هذا المقام أعلى مما قبله لا جرم جعل فضيلة الأول درجة وفضيلة الثاني درجات . وفي تقديم الأمور إلى النفس هنا تتناسب مع السياق إذ أن النص القرآني يواجه بعض أولئك المسلمين الذين تخلقوا عن الهجرة إلى دار الإسلام وفضلوا البقاء في دار الكفر احتفاظاً بأموالهم إذ لم يكن المشركون يسمحون لمهاجر أن يحصل معه شيئاً من ماله هذا بالإضافة إلى أن الآية السابقة وهي قوله تعالى : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة .. » ( النساء : ٩٤ ) .

هذه الآية بينت مدى حرص المسلمين على المال وطمعهم في الغنيمة وهذا أدى إلى تسرعهم في الحكم على من ألقى إليهم السلام بقولهم « لست مؤمناً » وكان معه غنم له ، هذا كله يتناسب مع تقديم المال على النفس في قوله تعالى فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة .

أما الترقى والتخرج في الآية ففيها انتقل من الإبهام والاجمال إلى البيان والتفصيل وفي البيان انتقل من الخاص أي الجهاد بمعناه الخاص حيث قيد بالنفس والمسأل إلى الجهاد بمعناه العام حيث أطلق ولم يقيد ففيها تدرج وترقى من الإبهام إلى البيان ومن الخاص إلى العام ومن الأفراد إلى الجمع .

دارهم — وديارهم :

اقتضى السياق أن يأتي بلفظ الدار مفرداً مرتين في الأعراف . ومرة واحدة في العنكبوت بينما وردت في هود مرتين بالجمع .

قال تعالى في قصة صالح وفي قصة شعيب في الأعراف :  
 « فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ » •

وأيضا في قصة شعيب في العنكبوت ، وقد جمعت في سورة هود  
 في قصة صالح في قوله تعالى : « وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا  
 فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ » فنراها أفردت مع الرجفة وجمعت مع الصيحة  
 ما السر في ذلك ؟

يقول الأنصاري : الأفراد يتناسب مع الرجفة أي الزلزلة وهي  
 تختص بجزء من الأرض ، والجمع يتناسب مع ذكر الصيحة لأنها من  
 السماء وهي زائدة على الرجفة (٤١) •

فبلوغها أكبر وأبلغ من الزلزلة فذكر كل واحد بالليق به •

ونقول : قد يقصد من الأفراد في « دارهم » معنى بلدهم ، وقد  
 يقصد من الجمع في « ديارهم » معنى منازلهم ، والرجفة تتناسب  
 مع الأفراد بهذا المعنى لأن الرجفة هي الزلزلة والاضطراب والحركة  
 الشديدة ، وهذا يقتضي تحرك القوم واضطرابهم ومن ثم لا يلزم منه  
 جنومهم في منازلهم ، وإنما يغلب أن يكون الجنوم خارج منازلهم أو  
 في منازل بعضهم البعض ومن ثم صح إطلاق الدار بمعنى البلد •

وأما الصيحة وهي الصوت الشديد الذي يفجأهم فيفزعهم  
 فتضطرب منه قلوبهم مما يؤدي إلى هلاكهم ، وهذا يغلب عليه أن تكون  
 الصيحة في وقت سكون الليل والقوم في منازلهم مما يؤدي إلى أن  
 يكون الجنوم في منازلهم • ومن ثم صح إطلاق الديار بمعنى المنازل  
 أي جنوم كل واحد منهم في منزله الخاص به •



ففي قوله تعالى : « وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لنقومكما  
بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتركم قبلةً واقبوا الصلاة ويؤمروا المؤمنين »  
تنوع الخطاب والأمر بالتثنية أولاً في قوله : « تبوءا » والجمع ثانياً  
في قوله : « واجعلوا » وأقيموا » والافراد ثالثاً في قوله : « يؤمروا  
المؤمنين » .

كيف التأم انظم بهذا الخطاب المتتبع ؟

يجيب ابن القيم على هذا بقوله : « هو من أحسن النظم وأبدعه  
فإنه ثنى أولاً إذ كان موسى وهارون هما المرسلان المطاعان ، ويجب  
على بني إسرائيل طاعة كل واحد منهما سواء إذا تبوءا البيوت تقومهما  
فهم تبع لهما ، وهذا التفسير لابن القيم يشير إلى المجاز العقلي ولم  
ينقصه إلا ذكر المصطلح البلاغي لأنه ينكر المجاز ويسميه « الطاغوت » .

وقد صرح بالمجاز في هذه الآية الشيخ الطاهر بن عاشر حيث  
قال : وفاعل هذا الفعل في الأصل هو الساكن بالمباعدة ، وإنما أسند هنا  
إلى ضمير موسى وهارون — عليهما السلام — على طريقة المجاز  
العقلي ، إذ كانا سبب تبوء قريتهما للبيوت . والقرينة قوله « لتوكنما »  
إذ جعل التبوء لأجل القرب على منوال قوله تعالى « وقال فرعون  
يا هامان ابن لي صرحاً » وجمع الضمير فقال : « واجعلوا بيوتركم قبلةً  
واقبوا الصلاة » .

ثانياً : لأن هذا الخطاب بشأن حكم تشريعي وهو استقبال القبلة  
في هذه البيوت وإقامة الصلاة فيها فهو خطاب للقرم كلهم من بني  
إسرائيل وإقامة الصلاة فرض على الجميع يقتضي السياق النص عليه  
هكل واحد مكلف بأن يجعل بيته قبلة ومكلف بإقامة الصلاة والمحافظة  
عليها . ولما كانوا غير مستقرين في هذه البيوت حيث أمروا باتخاذهم  
من خيام أو اختصاص تهيئة للاتصال كانت حالتهم مظنة العمل عن

التي

إقامة الصلاة فلذلك أمروا بالمحافظة على أقامتها في مدة رحلتهم .  
وأفرد الضمير في قوله : « وبشر المؤمنين » .

ثالثاً : لأن موسى هو الأصل في الرسالة وأخوه رداء ووزيرا ،  
ولما كان الأصل في الرسالة فهو الأصل في البشارة . أو لأنهما في  
حكم رسول واحد فإن موسى وأخاه لما أرسلوا برسالة واحدة كأما  
رسولاً واحداً كقوله تعالى : « أنى رسول رب العالمين » (٤٢) أو  
خص موسى عليه السلام بالبشارة تعظيماً لها وللمبشر لأن الغرض  
الأصلي من جميع العبادات حصول هذه البشارة .

وقيل : البشارة لبنى إسرائيل بأن الله سيظهرهم على عدوهم  
لأن دا أمروا به من اتخاذ البيوت أمر بحالة مشعرة بترقب أخطار  
وتخوف فأنهم قالوا « ربنا لا تجمعنا فتنه للقوم الظالمين ونجنا برحمتك  
من القوم الكافرين » فأمر موسى أن يبشرهم بحسن العاقبة (٤٣) .

ويتنوع الخطاب مرة ثانية في الآية التي بعدها مباشرة في قوله  
تعالى « وقال موسى ربنا انك أنت فرعون وهامان وزينة وأمه إلا في  
الحياة الدنيا .. الآية » قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيماً ولا تتبعان  
سبيل الذين لا يعلمون » .

فقد جاء الأفراد أولاً في دعاء موسى عليه السلام ، على فرعون  
وهامان وجاءت إجابة الدعاء من الله تعالى بالثنية « قل قد أجيبت  
دعوتكما .. » فأضيفت الدعوة إلى ضمير الخطاب المثنى فلم تأت  
الاجابة مطابقة لنسق السؤال أو الدعاء هي الظاهر ، فلم عدل ، أخذ

(٤٢) التحرير والتنوير ٢٦٧/١١ .

(٤٣) بدائع الفوائد ٢٠/٤ .

النظم القرآني عن ظاهر السياق في الإجابة من خطاب المفرد إلى خطاب المثنى ؟

ذكر العلماء والمفسرون وجوها متعددة في بيان سبب هذا المدول منها : أن الخطاب المدول إليه لموسى وهارون عليهما السلام وظاهره أن هارون عليه السلام دعا بمثل ما دعا به موسى عليه السلام حقيقة لكن اكتفى بنقل دعاء موسى عليه السلام لكونه الرسول بالاستقلال ، وأشرك هارون معه في الإجابة اظهارا لشرفه وبشارة له عليه السلام (٤٤) •

وقد يقال : انه لم يقع من هارون عليه السلام دعاء على الحقيقة لكن أضيفت الدعوة إليه أيضا في الإجابة بناء على أن دعوة موسى عليه السلام في حكم دعوته مراعاة لجانب كونه تابعا له ووزيرا فجعل كأنه قائل ما قال به موسى لأن دعوتهما واحدة ، ويؤيد هذا قوله تعالى « والله ورسوله أحق أن يرضوه » فقد قيل لما كان الأرضيين واحدا من جهة كون رضا رسول الله من رضا الله لكنه رسوله ومبلغا عنه حل علام قال تعالى « من يطع الرسول فقد أطاع الله » من أجل هذا أفرد الضمير فقيل « يرضوه » (٤٥) فقد جاءت في هذه الآية انتزاعية بالعطف أولا والافراد ثانيا ، وفي الآية التي نحن بصددتها جاء الافراد أولا والثنية ثانيا على العكس •

وقيل : ان موسى عليه السلام كان يدعى وهارون كان يؤمن ، ومن يقول « آمين » داع أيضا لأن معناه استجب •

(٤٤) روح المعاني للدالوسي ١٧٤/١١ •

(٤٥) انظر : تفسير القرطبي ٣٠٣٣/٥ يتصرف •

وقيل : ان التثنية هنا قائمة مقام المفرد لأن العرب قد تضاعفوا  
الواحد بـ خطاب الاثنين قال الشاعر :

فقلت لصاحبي لا تعجلنا بنزع أصوله فاجترشينا

وقد ذكر القرطبي وجهها عن النحاس قال : سمعت علي بن سليمان  
يقول : الدليل على أن الدعاء لهما قول موسى عليه السلام « ربنا »  
ولم يقل « رب » • وهذا لم ينهض دليلا على أن الدعاء لهما  
مما لأنه ليس من اللازم أن يكون نصا في دعاء الاثنين فقد يدعو به  
الواحد بل هو الأفضل والأرجى لقبول الدعاء على نحو ما مر في قوله  
تعالى « اهدنا الصراط المستقيم » •

وفي نظم الجواب على هذا النسق المحكم أسرار بلاغية نرى من  
تمام الفائدة أن نذكرها •

فقوله : « قال قد أجيببت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الدين  
لا يعلمون » جواب من الله لكلام موسى عليه السلام جرى على طريقة  
حكاية المحاورات التي لا تعطف جملها في غالب آيات التنزيل وافتتاح  
الجملة بـ « قد » والفعل ماض يفيد تحقق الحصول في المستقبل  
ولا يلزم من الاخبار بالماضي حصول الاجابة في الزمن الماضي وانما  
حصلها في المستقبل وعلى هذا يكون الماضي قد وضع موضع المستقبل  
لتحقق حصوله لأن اخبار الله كائنه لا محالة فهي بمنزلة الحاصلة •  
ومعنى اجابة الدعوة اعطاء ما سأل موسى ربه أن يسلب عن شرعون  
وملئه النعم ، ويوالي عليهم المصائب حتى يساهروا مقاومة دعوة موسى  
قال تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم  
يتذكرون » وقال : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع  
والدم آيات مفصلات » •

ويُعد أن أخير بأجابة دعوتها أمرها بالاستقامة شكرا على هذه النعمة وهي إجابة الله دعاءها .  
والأمر هنا في قوله « استقيما » قد خرج عن معناه الحقيقي وهو حثب حصول الفعل « الاستقامة » لأنها خاضعة ، ونهايك باستقامة النية ، وتحصيل الحاصل محال ، وعلى هذا يكون المراد من الأمر المثبات على الاستقامة والمداومة عليها والازدياد منها ، ثم عقب الأمر بالاستقامة النهي عن اتباع طريق الذين لا يعلمون ، وإن كان ذلك دخلا ضمن الأمر بالاستقامة لزيد التنبيه على توحى الطريق المستقيم وهو طريق الحق ، وأهتماما بالتحذير من الفساد أو قد يكون النهي عن اتباع سبيل الجاهلين الذين لا يفتنون حكمة إجابة الدعاء فيظنون أنه متى كان الدعاء مجابا كان المقصود حاصل في الحال فربما أجاب دعاء إنسان في مطلوبه إلا أنه انطأ يوصله إليه في وقته المقدر ، والاستعجال لا يصدر إلا من الجهال ، وهذا النهي لا يدل على أن ذلك قد دسعر من موسى عليه السلام .

كلما أن قوله : « لئن أشركت ليحبطن عملك » لا يدل على صدور الشرك منه عليه السلام . فيكون المراد من النهي التهيج والالهاب وقد يكون الكلام خبرا ولا نافية والواو للدخول أو للعطف والخبر بمعنى النهي كقوله تعالى : « لا تعبدون إلا الله » وذلك لأن نون « ولا تتبعان » تستقط بالجزم على أن « لا » نافية وأذلك قيل : إنما نون المثني ومن قرأ بالتشديد فعلى ادغام نون المثني بنون التوكيد الحقيقية .

ومن العدول من خطاب المفرد الى خطاب المثني ما جاء في قوله تعالى : « قالوا أجهننا لمثلقتنا بها وجعنا عليه آاسنا وتكون لكمنا إكبرياء في الأرض وما نحن لكمنا بمؤمنين » وجهوا الخطاب لولا جالافراد الى موسى عليه السلام منكرين عليه ما جاءهم به بين المعق

الذى يصرفهم عن دين آبائهم ، وكان الخطاب له أولا خاصة لأنه هو  
المباشر للدعوة وإشافة لهم بطريق من دعوته لهم الى الايمان الذى  
وصفوه بالسحر وهو عليه السلام الذى أظهر لهم المعجزة التى أبطلت  
السحر ، ووجهوا الخطاب بده فلك بالثنية موعظة لجالهم فى سرى  
قلوبهم بهرسى وهارون فى العاية التى ينطالباها وفى تحصيل النفع  
لأنفسهما بالاستحواذ بمالك والظفر بالعظمة والكهوية على

الناس (٤٦) .

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

(٤٦)

انظر : روح المعاني للآلوسى .

## الفصل الثاني

### تنوع الخطاب بين الافراد والتثنية والجمع

الانتقال من التثنية الى الجمع ثم الى الافراد :

في قوله تعالى : « وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين تنوع الخطاب والأمر بالتثنية .

أولا : في قوله « تبوءا » ثم عدل عنه الى الجمع . ثانيا : في قوله « واجعلوا ... وأقيموا » وعدل عنه الى الافراد . ثالثا : في قوله : « وبشر المؤمنين » كيف التأم النظم بهذا الخطاب المتنوع ؟

يجيب ابن القيم على هذا بقوله : « هو من أحسن النظم وأبدعه . فإنه متى أولا اذ كان موسى وهارون هما الرسولان المطاعان ، ويجب على بنى اسرائيل طاعة كل واحد منهما سواء ، وإذا تبوءا البيوت لقومهما فهم تبع لهما ، وهذا التفسير يشير الى المجاز المعلق الذي علاقته السببية ولم ينقصه وسوى ذكر المصطلح البلاغى ، لأن ابن القيم ينكر المجاز ويسميه « الطاغوت » .

وقد صرح بالمجاز في هذه الآية الشيخ الطاهر بن عاشور حيث قال : « فاعل هذا الفعل في الأصل هو الساكن في المباءة ، وإنما أسند هنا الى ضمير موسى وهارون — عليهما السلام — على طريقة المجاز المعلق ، اذ كانا سبب تبوء قومهما للبيوت .

والقرينة قوله : « لقومكما » اذ جعل التبوؤ لأجل القوم على منوال قوله تعالى : « وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا » .  
ثم عدل عن التثنية الى الجمع فى قوله تعالى : « واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة » بتوجيه الخطاب الى قوم موسى وهارون ، وهما فى ضمن هذا الخطاب .

ولعل السر فى خطاب الجمع هنا هو تعلقه بحكم تشريعى وهو استقبال القبلة فى هذه البيوت وإقامة الصلاة فيها اذ كان القوم أول الأمر مأمورين بالصلاة فى بيوتهم خفية خوفا من فرعون وملئه لئلا يؤذوهم أو يفتنوهم فى دينهم على مثل ما كان عليه حال المؤمنين وسيد المرسلين أول الدعوة .

فهو خطاب للقوم كلهم من بنى اسرائيل وإقامة الصلاة فرض على الجميع يقتضى السياق النص عليه فكل واحد مكلف بأن يجعل بيته قبلة ومكلف أيضا بإقامة الصلاة فيها والمحافظة عليها لأنهم كانوا غير مستقرين فى هذه البيوت حيث أمروا باتخاذها من خيام أو أخصاص تهيئة للارتحال فكانت حالتهم هذه مظنة الشغل عن إقامة الصلاة .  
لهذا أمروا بالمحافظة على إقامتها فى مدة رحلتهم .

وأفرد ضمير فى قوله : « وبشر المؤمنين » لأن مرسى هو الأصل فى الرسالة وأخوه رداء ووزيرا ، وكما كان الأصل فى الرسالة فهو الأصل فى البشارة لأنها من خصوصيات صاحب الشريعة مما يجعلها ذات أثر كبير فى نفوس القوم ، ويلحظ فى وضع ضمير المؤمنين موضع ضمير القوم معنى مدحهم بالايمان وللاشعار كذلك بأن هذا الوصف هو المدار فى التبشير .

وقيل : لأنهما فى حكم رسول واحد كقوله تعالى : « انى رسولنا



## يحيى

رب العالمين » فان موسى وأخاه نسا أرسلنا برسالة واحدة كأننا رسولا واحدا . او خص موسى عليه السلام بإبشارة تعظيما لها ونميش لأن الغرض الأصلي من جميع العبادات حصول هذه البشارة ، وثقل البتساره بني اسرائيل بأن الله سيظهرهم على عدوهم لأن ما «روا به من اتخاذ البيوت أمر بحانة مشعرة بذرقب أخطار وتخرف فانهم قالوا « ربنا لا تجعلك فتنة لقوم الظالمين ونجنا برحمتك من العنوم الكافرين فامر موسى أن يبشرهم بحسن لعافية . وهذا الوجه أنسب للمقام .

### العدول عن خطاب المفرد الى خطاب المثنى :

ويتنوع الخطاب مرة ثانية في الآية التي بعد السابقة مباشرة في قوله تعالى : « وقال موسى ربنا انك أتيت فرعون وهامه زينة وأموالا في الحياة الدنيا . الآية » « قال قد أجيبته دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » فقد جاء الافراد أولا في دعاء موسى - عليه السلام - على فرعون وملئه ثم عدل عنه الى التثنية في اجابة الدعاء من الله تعالى « قال قد أجيبته دعوتكما » فأضيفت الدعوة الى ضمير الخطاب المثنى فلم تأت الاجابة مطابقة لنسق السؤال أو الدعاء في الظاهر ، فلم عدل النظم القرآني عن ظاهر السياق في الاجابة من خطاب المفرد الى خطاب المثنى ؟ ذكر العلماء والمفسرون وجوها متعددة في بيان سبب هذا العدول منها : أن الخطاب المعدول اليه لموسى وهارون عليهما السلام وظاهره أن هارون عليه السلام دعا بمثل ما دعا به موسى عليه السلام حقيقة لكن اكتفى بنقل دعاء موسى عليه السلام لكونه الرسول بالاستقلال وأشرك هارون معه في الاجابة أفهسارا لتشفه وبشارة له عليه السلام .

وقد يقال : انه لم يقع من هارون عليه السلام . دعاء على الحقيقة

لمكن أضيفت الدعوة إليه في الإجابة بناء على أن دعوة موسى عليه السلام في حكم دعوتيه مراعاة لجانب كونه ثبوتية وتوحيديا تجعل حادثة قائل ما قال به « موسى لأن دعوتيهما واحدة » ويؤكد هذا قوله تعالى : « والله ورسوله أخص أن يرضوه » فقد قيل : « لما كان الارضاء أن واحدا من جهة كونه رضا رسول الله من رضا الله تعالى ليكون رسوله ومبلغا عنه جل علاه قال تعالى : « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » من أجل هذا أفرد الضمير بضمير « يرضوه » فقد جاءت في هذه الآية التثنية بالمعطف أولا والأفراد ثانيا ، وفي الآية التي نحن بصدد حلها جاء الأفراد أولا والتثنية ثانيا عن العكس .

وقيل : أن موسى عليه السلام كان يدعو وهارون كان يؤمن ، ومن يقول : « آمين » داع أيضا لأن معناه : استجب .

وقيل : أن التثنية هنا قائمة مقام المفرد ، لأن العرب قد تخاطب الواحد بخطاب الاثنين . قال الشاعر :

فقلت لصاحبي لا تمجانا  
بزرع أصنبره فاجتر شيحا

وقد ذكر القرطبي وجهها عن النجاشي قال : سمعت علي بن سليمان يقول : الفيلسوف على أن ادعاء لهما قول موسى — عليه السلام — « ربنا » ولم يقل : « رب » (١) وهذا لم ينفخ دليلا على أن الدعاء لهما معا ، لأنه ليس من اللازم أن يكون قوله : « ربنا » نصا في دعاء الاثنين فقد يدعو به الواحد بل هو الأفضل والأرجى لقبول الدعاء على نحو ما مر في قوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم » .

وفي نظم إجابة الله ادعاء موسى وهارون على هذا النسق المحكم أسرار بلاغية ترى من تمام الفائدة أن تذكرها .

(١) تفسير القرطبي ٣٠٢٣/٥ - بتصرف .

١ - حصل بين دعاء موسى عليه السلام وبين اجابة دعائه من الله - عز وجل - لشبه كمال الاتصال لان الكلام جرى على طريقة حكاية المحاورات التي لا تعطف جملها في غالب آيات التنزيل .

٢ - افتتاح الجملة بقدر على الفعل الماضي يفيد تحقق الحصول في المستقبل ولا يلزم من الاخبار بالماضي حصول الاجابة في الزمن الماضي ، وانما حصولها في المستقبل على منوال قوله تعالى : « آتى امر الله » فيكون الماضي قد وضع موضع المستقبل لتحقيق حصوله ، لان اخبار الله كائنه لا محالة فهي بمنزلة الحاصلة .

ومعنى اجابة الدعوة اعطاء ما سأله موسى ربه أن يسلب عن فرعون وملئه النعم ويؤاخي عليهم المصائب حتى يسأموا مقاومة دعوة موسى - عليه السلام - قال تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون » وقال : « فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات » .

٣ - ويعد أن اخبر باجابة دعوتها أمرهما بالاستقامة شكرا على هذه النعمة وهي اجابة الله دعاءهما . والأمر هنا في قوله : « استقيما » قد خرج عن معناه الحقيقي ، وهو طلب حصول القمل « الاستقامة » لانها حاصلة ونهايك باستقامة النبوة ، وتحصيل الحاصل محال وعلى هذا يكون المراد من الأمر : الثبات على الاستقامة والمداومة عليها والازدياد منها . ثم عقب الأمر باستقامة النهى عن اتباع طريق الذين لا يعلمون ، وان كان ذلك داخلا ضمن الأمر بالاستقامة لمزيد التثنية على توحى الطريق المستقيم وهو طريق الحق ولاهتمام بالتصديق من الفساد . أو قد يكون النهى عن اتباع سبيل الجاهلين الذين لا يفقهون حكمة اجابة الدعاء فيظنون أنه متى كان الدعاء مجابا كان المقصود بخاصة في الحال ، فربما اجاب دعاء انسان في مطلوبه الا أنه انما

حيوصله اليه في وقته المقدر ، والاستعجال لا يصدر الا من الجهال ، وهذه  
 « انتهى بهذا المعنى لا يدل على أنه قد صدر من موسى عليه السلام .  
 كما أن قوله : « لئن أشركت ليحبطن عملك » لا يدل على صدور  
 للشرك منه عليه السلام فيكون المراد من النهي التهيج والالهاب .

وقد يكون الكلام خيرا و « لا » نافية ، والواو للحال أو للعطف ،  
 والخير بمعنى النهي كقوله تعالى « لا تعبدون الا الله » ، وذلك لأن نون  
 « ولا تتبعان » تسقط بالجزم ، على أن « لا » ناهية ولذلك قيل انها  
 نون المثني . ومن قرأ بالتشديد فعلى ادغام نون المثني بنون التوكيد  
 الخفيفة .

ومن المدول عن خطاب المفرد إلى خطاب المثني ما جاء في قوله تعالى  
 « قالوا أجبنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في  
 الأرض وما نحن لكما بمؤمنين » وجهوا الخطاب أولا بالانفراد إلى  
 موسى عليه السلام منكرين عليه ما جاءهم به من الحق الذي يصرههم  
 عن دين آباءهم .

وكان الخطاب له أولا خاصة ، لأنه هو المباشر للدعوة والمشافهة  
 لهم بما سبق من دعوته لهم إلى الايمان الذي وصفوه بالسحر ، وهو  
 عليه السلام الذي أظهر لهم المعجزة التي أبطلت السحر .

ووجهوا الخطاب بعد ذلك بالمثنية مراعاة لحالهم في سوء ظنهم  
 بموسى وهارون في الغاية التي يتطلبانها وهي تحصيل النفع لأنفسهما  
 بالاستحرام إذ بالملك والظفر بالمعظمة والكبرياء على الناس (٢) .

### المحول من المثنى الى المفرد :

في قوله تعالى : « فقلنا يا آدم ان هذا عدوك ونزولك فسلا  
 يخرجكما من الجنة فليتقي » في هذا النظم الجمل مجتدب من  
 سبحانه وتعالى لادم وزوجه من عداوة ابليس ونهى لهما عن مطوعيهما  
 فيما يوسوس به لهما حيث يفصى ذلك الى خروجهما من الجنة ، وحينئذ  
 فلا بد من انصب والتعب شعيا في طلب الرزق بعدما كان الحال في  
 الجنة عيشا رغيدا هائلا بلا كلفة ومشقة . وهنا عن فعل الاخراج به  
 لويؤوجه فقال : « فلا يخرجكما » واسند فعل الشقاء الى آدم عيشه  
 الاسلام بوعلى هذا يكون الخطاب معذولا به من المثنى الى المفرد ما اسر  
 في ذلك ؟

اجاب جار الله الزمخشري على هذا بقوله : وانما اسند الى آدم  
 وحده فعل الشقاء دون حواء بعد اشراكهما في الخروج لانه هو  
 المقصود أولا بالكد والتعب والشقاء لتحصيل العيش ، وان قصدت زوجه  
 أيضا بالشقاء لكن ذلك على وجه التبع فجعل الخطاب للمقصود أصلا  
 دون المقصود تبعاً وضمناً ، مع ما في هذا النظم من مراعاة القواصم  
 والايجاز . أو يكون المدول لأن الشقاء وهو التعب في تحصيل أمر  
 المعاش وهو من وظائف الرجال ، لأن الله تعالى جعل المشقة في معيشة  
 الدنيا في حيز الرجال أصلاً .

فهذان وجهان ذكرهما الزمخشري ، وقد يظن مع بادئ النظر أن  
 الوجهين كالتقاربين . والحق أنهما مختلفان . فمبنى الأول على أن  
 المدول الى المفرد لا يجاز في الحقيقة هذا اللفظ فقط فزوجه — عليه  
 السلام — من حيث المعنى داخلة معه إذ المراد فتشقيان لكنهما لما كانا  
 كالشيء الواحد يجري على أحدهما ما يجري على صاحبه عبر عنهما  
 بصيغة المفرد ويستأنس له بقوله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي  
 خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » .

وعلى هذا يكون ذلك من باب التمييز عن المثنى بالمفرد ، وقد غلب عليه آدم — عليه السلام — على زوجه من تغليب المذكر على المؤنث **الجملة السابقة ومن فوائد التغليب ومقاصده : الإيجاز لأن زوجه داخلة ضمن هذا الخطاب دون أن يسند الشكelle اليه نصا .**

ولذلك يقول الزمخشري : « فاختصر الكلام بإسناده اليه دونها » .  
وأما على التوجيه الآخر فالعدول عن خطاب المثنى الى خطاب المفرد وليس من خطاب المثنى بالمفرد ، لأن آدم هو المقصود في الوجه الثاني فقط ولم يدخل في ضمنه زوجه كما في الوجه الأول ، فهما وجهان مختلفان (٣) . وقد روعي فيهما جانب المعنى على نحو ما بينا وجانب اللفظ بمراعاة الفواصل .

ومن العدول عن المثنى الى المفرد قوله تعالى : ﴿ قَاتِلْهُمْ رَبُّكُمْ ﴾ يا موسى « وهو من سؤال الطاغية فرعين لموسى عليه السلام ، ونلاحظ أنه أضاف الرب الى ضمير المثنى المراد به موسى وهارون أولا ، وخص النداء بموسى عليه السلام وحده على وجه التنصيص ثانيا ، فما السر وراء هذا العدول ؟

يقول الزمخشري : « خاطب الاثنين ووجه النداء الى أحدهما وهو موسى لأنه الأصل في النبوة ، وهارون وزيره وتابعه ، ويحتمل أن يجعله خيته ودعارته على استدعاء كلام موسى ، دون كلام أخيه لما عرف من فصاحة هارون والرتة في لسان موسى — عليه السلام — ويبدل عليه قوله : « أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين » (٤) .

(٣) انظر : وجوه الخطاب في القرآن الكريم ومواقفه البلاغية

للدكتور محمد أبو زيد ص ٨٦ .

(٤) الكشف ٥٣٩/٢ .

### العدول عن خطاب المثنى إلى خطاب الجمع :

فى قوله تعالى : « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم » فقد عدل عن المثنى إلى الجمع فى قوله : « ألم يأتكم » فلم يقل « يأتكما » مراعاة لجنسى الجن والإنس ، وإنما جمع مراعاة للأفراد المندرجة تحت الجنسین لأغادة العموم أى عموم أفراد الجنسین من الجن والإنس وذلك لتقريرهم جميعاً باتيان الرسل اليهم وتبليغهم الدعوة ، وفى ذلك مزيد من التوبيخ والتقريع لمن فرط من المعشرین فى جنب الله فلو لم يسلك هذا الطريق وأجرى الخطاب على نسق ما قبله لتوهم انصراف المعنى المفسد بالاستفهام إلى جنس المعشرین دون اعتبار أفرادهما جميعاً »

ومن العدول عن خطاب المثنى إلى خطاب الجمع أيضا قوله تعالى : « قال فلا تأذها بآياتنا أنا معكم مستمعون » فقد أتى الخطاب بالثنائية فى قوله : « فأذهبا » مراداً به موسى وهارون عليهما السلام — ثم عدل النظم الكريم عن التثنية إلى الجمع فى قوله : « أنا معكم مستمعون » لم يقل : « أنا معكما » •

وقد ذكر الشهاب الخفاجى سر هذا العدول وهو أن الجمع تكون الخطاب هنا لموسى وهارون ومن تبعهما من بنى اسرائيل فيتضمن الكلام الإشارة بالإشارة إلى علو أمرهما واتباع القوم لهما لقوله تعالى : « ونجعل لكنا سلطانا » (٥) •

#### القول من الجمع الى المفرد :

قد يعدل عن الجمع الى المفرد وان لم يكن المفرد مراداً به معينة كما في قوله تعالى : « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » .

فقد جرى الخطاب أولاً في قوله سبحانه « ليبلوكم أيكم » على طريق الجمع ، ثم عدل الى المفرد بعد ذلك في قوله تعالى : « ما ترى » . فارجع . ثم ارجع . ولعل السر في هذا العدول هو أنه لما كان الخطاب الأول وهو أمر الابتلاء مما يعم جميع المكلفين فرداً فرداً بحيث لا يتخلف عنه أحد كما أن ذلك واقع تعليلاً لآية كونية التي هي من دلائله ملكه تعالى وإقتداره وهي آية عاية لا يتخلف عنها أحد فهي قائمة مع كل نفس مخلوقة ، ولا سبيل معها الى تكرار أو مكابرة لذك كله سبق الخطاب الكريم مساق الجمع لينتظم جميع المخاطبين .

ولكن لما كان الأمر مع المخاطبات الأخر يختف اختلقت صورة الخطاب معها حيث كانت تتمثل بآية في الآفاق بعد ما كانت الأولى في الأنفس (٦) ، وآيات الآفاق تحتاج الى مزيد من النظر والاعتبار للدلالة على وحدانية الله وربوبيته وقدرته وسعة سلطانه ومن ثم عدل المنتظم الكريم عن خطاب الجمع الى خطاب المفرد الذي يراد به غير معين ، ولعل السر في ذلك هو إرادة استقلال كل مخاطب بالنظر في

(٦) وجوه الخطاب للدكتور محمد أبو زيد في ٩١ .



آيات الأفاق ، لأنه إذا وجه الخطاب اليه بالجمع فقد لا يخطر فيهما اعتقادا على نظر غيره ..

وفي قوله تعالى : « د يوم تزوها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى .. » ذكر النظم الرؤيية أولا بـخطاب الجمع ثم عدل عنه إلى خطاب الافراد في قوله : « وترى » .. والسر - والله أعلم - في هذا الاختلاف وهو أن سملن الرؤيية مختلف في الموضعين إذ ان المرئي في الأول هو الزلزلة التي يشاهدها جميع الناس ، فكان خطاب الجمع انصب لذلك وفي الثاني المرئي هو ما عليه حال الناس من السكر ، وهذا يقتضى أن يكون كل واحد منهم رائيا لساثرهم (٧) .

وعلى هذا فلابد من افراد المخاطب على وجه يعم كل واحد منهم إذ الخطاب هنا لغير معين ، فهو وان كان مفردا من حيث اللفظ الا أنه يشمل الجميع ، وانما أفرد باعتبار أن كل واحد ، منهم رائيا لباقيهم ، أي أنهم يرون بعضهم بعضا على هذه الحال ، فرائي : وترون الناس سكارى لكان المفهوم منه أن جماعة منهم غير سكارى ترى الناس على حال من السكر وهذا غير مراد إذ ان الجميع في هذا اليوم سكارى ، وانما يرى بعضهم بعضا على هذه الحالة . وقيل : خطاب الافراد لرسول الله ﷺ فيكون المخاطب مفردا على حقيقته ومتعينا ، لأنه ﷺ لم ينله ذا ألم بهم من الهول والفرع والسكر ، وفيه مزيد تكريم لرسول الله ﷺ ، ولا تعارض بين التفسيرين فيصح الأخذ بهما با تباين مختلفين ومن المدول عن الجمع إلى الافراد قوله تعالى : « ولنبليكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » .

فمنه على طريق الابتلاء والاداء على طريق الجمع من خطابات البشارة وانما على طريق المفرد . وذلك لان الابتلاء يعم الجميع وأما البشارة بثواب المضرب ويأتى حرجته فهو من خصوصيات المرسلات حتى من تتأتى منه البشارة غير للرسول فله يبين الصابرين بما ثبت عن رسول الله ﷺ مما جاء في السنة المطهرة .

ولذلك فانه مع ما قيل من ان البشارة به كن صرفها الى كل من يتأتى منه التشجيع الا ان الأبلغ والأنسب للسباق أن الخطاب هنا في البشارة على ظاهره الى رسول الله ﷺ حتى من تتأتى منه البشارة من الصلابة أو التابعين أو العلماء المجتهدين فانهم لا يخرجون في مشارتهم عما جاء به رسول الله ﷺ .

لكن اذا قال ﷺ « بشر » فان المراد منه كل من تتأتى منه البشارة على وجه العموم كما قال ﷺ « بشر المشائين في الظلم بالنور التام يوم القيامة » .

#### العدول عن خطاب الجمع الى خطاب المثنى :

قال تعالى : « سنفرغ لكم أيها الثقلان . فبأي آلاء ربكما تكذبان يا معشر الجن والإنس ان استطعتم ان تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان . فبأي آلاء ربكما تكذبان يرسلنا عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » .

فقد عدل أولاً عن خطاب الجمع في قوله تعالى « سنفرغ لكم » الى المثنى ثم عدل عنه الى الجمع في قوله تعالى : « ان استطعتم ان تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان » ثم عاد الخطاب مرة أخرى الى خطاب المثنى .

وفي إثبات طريق الجمع أولا لتعلق الخطاب بجزاء المكلفين ، وهذا يقتضى شموله لجميع المكلفين فردا فردا ثم عدل الخطاب إلى المثنى على ما عليه نظم السورة الكريمة في قوله تعالى : « أيها الثقلان » حيث خاطبوا باسم جنسهما من الجن والانس . في قوله تعالى « يا معشر الانج والانس ... » لزيادة التقرير ، ثم عدل إلى الجمع في قوله تعالى : « ان استطعتم » لرعاية كثرة الأفراد المندرجة تحت جنس الانج والانس .

وهذه المخاطبات المتنوعة انما وردت للدلالة على جزاء المكلفين من الجن والانس في يوم القيامة حيث أن العذاب لاحق بالكافرين والعاصيين منهم لا محالة ولا مهرب ولا مفر من وقوعه بهم ولات حين مناص لأن الملائكة محيطة بأقطار السموات والارض .

وبذلك فان الأمر في قوله تعالى : « فانفذوا » لتعجيز حيث لا تفاد لهم ولا مخرج من ملك الله تعالى .

ويذكر انفخر الرازي : « أنه لما كان المقصد في قوله تعالى : « ان استطعتم » بيان عجزهم وعظمه ملك الله تعالى قال : « ان استطعتم ان ينفذوا باجتماعكم وفونكم مانعوا » ولا تستطيعون معجزتهم فقد بان عند اجتماعكم واعتصادكم بعضهم لبعض فهو عند افتراضهم «ظهر» فهو خطاب عام مع كل أحد عند الانضمام الى جميع من عداه من الاعوان والاعوان ثم يوضح ما وراء العدول الى المثنى بعد ذلك في قوله تعالى : « يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تقتصران » فيقول : « هو لبيان الارسل على النوعين لا على كل واحد منهما ، لأن جميع الانس والجن لا يرسل عليهم العذاب النار فهو يرسل على النوعين أي على العاصين منهما ويختص منه بعض منهما بفضل الله ، ولا يخرج أحد من الاقطار أصلا » (٨) .

(٨) التفسير الكبير :

### العدول عن خطاب المفرد الى الجمع :

فى قوله تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . وجادلهم بالتى هى احسن ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم المهتدين » هذا كله على طريق خطاب المفرد ، ثم عدل النظم الكريم الى خطاب الجمع فى قوله تعالى : « وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عاقبتم به ولكن صبرتم لهو خير للصابرين » ثم يعود السياق مرة اخرى الى خطاب الافراد فى قوله تعالى : « واصبر وما صبرك الا بالله .... » .

والمخاطب فى هذه الآيات هو سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام لما ذكر فى اسباب النزول من أنه ﷺ حين رأى نومه يمثل به يرمى أحد حلف أن ينتقم منهم بأن يهتل بسبعين من أهل الشرك فنزلت الآية . والآية مسوقة لبيان أن العقاب لا بد أن يكون مماثلا للعقاب الذى نزل بكم دون زيادة أو اخراط فى العقاب ، والمقام يقتضى التنبيه على هذا لأن الذى لحقته الاساءة قد تحدنه نفسه وتسوقه الى الانقسام الشديد ممن أساء اليه أو اعتدى عليه .

ولعل السر فى العدول عن المفرد الى الجمع هو كراهة اسناد فعل المعاقبة اليه ﷺ وحده لعظم مقامه ومنزلته عند الله سبحانه وتعالى ، فان الانسان اذا أحب انسانا ذا قدر ومنزلة رفيعة ثم حدث منه ما يستحق اللوم والمعاتبة ، فانه لا يوجه اليه العتاب مباشرة بل يخفف منه باسناده الى ضمير الجمع .

وقد يستند الى ضمير الغائب المفرد كما حدث فى خطابه المولى عز وجل لرسوله ﷺ حين عيس فى وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه حينما جاءه وقال له يا رسول الله علمنى مما علمك الله ويكرر ذلك تكره . رسول الله قطعه لكلامه لتشاغله بلكابر القوم من قريش . وادخولهم الى

الاسلام فقال تعالى : « عيس وتولى » دون عيسيت وتوليت ، ليعلمنا المولى عز وجل غاية اللطف والادب في مخاطبته ذوى القدر والمهنة من انفسنا .

ومع ان الخطاب لرسول الله ﷺ في قوله تعالى : « وان عاقبتهم ... » فانه لا يمنع من دخول الامة في هذا الخطاب فان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ثم عاد الخطاب مرة اخرى الى الافراد في قوله تعالى : « واصبر وما صبرك الا بالله ... الآية » والمراد من الامر بالصبر الحث عليه والثبات والدوام والازدياد منه .

ومن تميز الخطاب من المفرد الى الجمع ما نجده في قوله تعالى : « ام يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور مثله فتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله » ( هود ) .

سلك النظم الكريم طريق خطاب المفرد في قوله : « قل » ثم عدل عنه الى خطاب الجمع في قوله تعالى « فان لم يستجيبوا لكم » .

ولو جاء على الظاهر لقال : فان لم يستجيبوا لك ، وفي سر العدول عن مقتضى الظاهر قيل : ان تحويل المخاطبة من الافراد الى الجمع تعظيما وتقديرا ، وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة تعظيما له ، فيقال : انتم يا سيادة الرئيس قلتم كذا وكذا ، وفعلتم كذا وكذا ، وعلى هواله يا ايها النبي اذا طلقتم النساء ، وكما في قول الشاعر :

فلن شئت حرمت النساء بسواكم

وان شئت لم أعلمن تقبلن ولا بردا

الشاهد في قوله « سواكم » ان المراد سواك ، والله عز وجل في الجمع تعظيما للمخاطب . وهذا وجوه اخرى في تأويل هذه الآية :

منها : أن الخطاب هنا على ظاهره لأنه لرسول الله وللمؤمنين أي  
 «ان لم يستجيبوا لك وللمؤمنين ، لأن الرسول ﷺ والمؤمنين كانوا  
 يتحدثونهم ، وقال في موضع آخر في القصص : « فان لم يستجيبوا  
 لك فاعلم ... » .

ومنها : أن الخطاب في قوله . « فان لم يستجيبوا لكم » للشركيين  
 والضمير في « لم يستجيبوا » لأنهم أن لا أعوانهم ونصرائهم ، والمعنى  
 فأتوا أيما المشركون بعشر سور مثله . الخ فان لم يستجب لكم من  
 تدعوته إلى المظاهرة على المعارضة لعجزهم « فاعلموا أنما أنزل  
 بعلم الله » .

وقد رجح هذا الوجه واستحسنه قطب الدين الرازي فقال :  
 « وهذا الوجه حسن مطرد ، أي الكلام يصحبه ملتزم موافق لما قبله ،  
 لأن ضمير الجمع في الآية المتقدمة للكفار ، والضمير في هذه الآية  
 ضمير الجمع فليكن للكفار أيضا ، ولأن أقرب المذكورين الكفار ، فرجوع  
 الضمير إليهم أولى ، ولأن الحمل على المؤمنين يحتاج إلى تأويل العلم  
 أي تأويل الخطم في قوله : « فاعلموا » بانثبات على العلم أو الزيادة  
 فيه ، وتأويل الاسلام في قوله تعالى : « فصل أنتم مسلمون »  
 بالاخلاص فيه (٩) بخلاف هذا الوجه فلا تأويل فيه ، ومالا يحتاج إلى  
 تأويل أولى مما فيه تأويل .

ومن الجدول عن خطاب المفرد إلى الجماعة ومن الخطاب إلى  
 التوبة ، ومن الضمير إلى الظاهر ما نجده في قوله تعالى : « بلولا إذا  
 سمعتموه من المؤمنين والمؤمنات يلطمخهم خيرا وتلاوا » هذا اللفظ

(٩) قطب الدين الرازي ص ٥٢١ . في الكشف ٢/٢٨٧ . ومفاتيح

مفاتيح الرازي ٨/٨٩٦ .

مبين « فالمخاطبون كانوا بحضرة الرسول - ﷺ - وعلى هذا يكون أصل الكلام « لولا اذ سمعتموه ظننتم بانفسكم خيرا وقتلتم » ، ولكن النظم القرآنى عدل عنه لما فى العدول من أسرار بلاغية يقتضيها المقام فنقول :

أولا : السر فى العدول عن خطاب المفرد الى خطاب الجماعة هو الانشعار بتعظيم شأن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - ورفعته مكانها ، وفيه أن النبى ﷺ - أب للمؤمنين وأن أزواجه أمهات لهم وتعظيمه يرجع الى تعظيمهم ، والقالة كالقالة فى أنفسهم ، وفى التعبير بلفظ الظن فى قوله « ظن » دقيقة يبنى الوقوف عندها ، وهى أنه يجب على المؤمن اذا سمع فى أخيه المؤمن ما يشينه يبنى أن يبادر الى بناء الأمر على الظن الراجح بأن الأصل براءة ساحة المؤمن عن كل عيب هذا ما يختص بالباطن ، وأما ما يختص بالظاهر فيبنى أن يصرح بماقول الدال على الشهادة له بالخير ويقول بملء فيه « هذا افك مبين » .

وفى العدول من الخطاب الى الغيبة توبيخ للمخاطبين ومعاتبة شديدة وإبعاد من مقام الزلفى أى كيف سمعوا ما لا يبنى الإصغاء عليه ، فضلا عن أن يتفوهوا به وفى العدول من المضممر الى المظهر دلالة على أن صفة الايمان جامعة لهم .

فينبنى لمن دخل فى هذه الصفة أن لا يسمع فيمن شاركه فيها هول عائب ولا طعن ضاع لأن عيب أخيه عيبه ، وفى هذا إشارة الى أن المؤمنين يجب أن يكونوا يدا واحدة متعاونين فى إصلاح مجتمهم فلا تتسرب اليه الفتن من أنفسهم ويجب أن يتحلوا بالصفات الحميدة التى تبرز على صدق إيمانهم بأن يجب كل أخ لأخيه ما يجب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه ، وقد يكون هذا المعنى مدمجا فى الآية الكريمة .

ومن المدول عن خطاب المفسر الى خطاب الجمع قوله تعالى :  
 « حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني » قال أولا : رب بالافراد  
 ثم عدل عنه الى الجمع في قوله « ارجعوني » يقول ذلك عند معاينة  
 الموت اختلف المفسرون في قوله سبحانه وتعالى « ارجعوني » من  
 المراد به ؟

فقال بعضهم : الملائكة الذين يقبضون الأرواح وهم جماعة فلذلك  
 ذكره بلفظ الجمع .

وعلى هذا يكون القائل قد نادى ربه ثم خاطب ملائكة ربه بقول :  
 « ارجعوني » . ويجوز على هذا الوجه أن يكون على حذف مضاف أى  
 يا ملائكة ربى فحذف المضاف ثم التفت اليه في عود الضمير (١٠) وقال  
 آخرون المراد من قوله تعالى : « ارجعوني » هو الرب المنادى وخوطف  
 بالجمع على سبيل التعظيم كما يخاطب العظيم بلفظ الجمع فيقول فيقال  
 فعلمتم وصنعتكم كذا وكذا وقال الشاعر :

فان شئت حرمت النساء سواكم وان شئت لم أطعم نفاخا ولا بردا

فقال سواكم على سبيل التعظيم جريا على عادة العرب من خطاب  
 السادة والملوك بذلك تعظيما . ومنه أيضا قول الشاعر :

ألا فارحموني يا اله محمد فان لم تكن أهلا فانت له أهل

فقد خاطب الاله الواحد بخطاب الجمع على سبيل التعظيم في  
 قوله : ألا فارحموني يا اله محمد .

ويؤخذ من هذا البيت ما يرد على الشيخ جمال الدين ابن مالك  
 حيث قال : انه لم نعلم أحدا أجاز للداعى أن يقول « يارجيمون » قال :



لثلاث يومهم خلاف التوحيد ، وقد أخبر تعالى عن نفسه بهذه الصفة  
وشبهها للتعليم في مواضع من كتابه الكريم .

وفي الآية وجه ثالث وهو أن ذلك يدل على تكرير الفعل كأنه قال :  
ارجعون ارجعون ارجعون على نحو قوله تعالى : « أنقيس في جهنم »  
فقد غسرت التثنية مع الفعل أنها بمثابة تكرار الفعل مرتين بمعنى ألق  
ألق ، وفيل منه أيضا قول امرئ القيس : ( قفا فبك من ذكرى حبيب  
ومنزل ) أى قف قف (١١) .

وفي قصة آدم عليه السلام نجد أن الأهر بهبوط آدم من الجنة  
هو وزوجه أو هو وإبليس اللعين قد كرر في أكثر من موضع في سفر أن  
الكريم وقد تنوعت صيغة الأمر بالاهباط بين الافراد والتثنية وإبمع  
فما سر هذا التنوع ؟ وما مقام كل نوع ؟ نقول - وبالله التوفيق - أن  
الأهر الأول بالهبوط مجموعا في سورة البقرة في قوله تعالى : « وقلنا  
اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى  
حين » (١٢) الأمر بالاهباط هنا لآدم وحواء وذريتهما وإبليس وذريته  
بدلالة قوله تعالى : « بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر  
ومتاع إلى حين » فإن العداوة المذكورة في الآية إنما هي بين آدم  
وإبليس وذريتهما كما قال تعالى : « أن الشيطان لكم عدو فاتخذوه  
عدوا » (فاطر آية ٦) وهو سبحانه قد أكد أمر العداوة بين الشيطان  
والإنسان وكرر ذكرها في القرآن لشدة التحذر من هذا العدو ،  
ولا يمكن في هذا السياق أن يكون أمر الاهباط هنا لآدم وحواء  
وذريتهما .

(١١) المرجع السابق .

(١٢) سورة البقرة آية ٣٦ .

والصحيح أنه - أي أمر الابهام - لأدم وخواء والمراد هنا وذواتهما  
لأنهما لما كانا أصل الأرض وتبعهم جملا كانهما الانس كلهم .

والعجب أنه استدلل على رايه بقوله تعالى : قال اهبطوا جميعا  
بعضكم لبعض عدا « وقوله تعالى : « فمن تبع هداهي فلا خوف عليه  
ولا هم يحزنون » ويستفاد من قوله هذا ان الامر بالاهباط المتأخر  
للالول المتأخر ، وقد صرح بذلك فقال : فان قلت : لم قرر قلنا اهبطوا ؟  
قلت : لتأكيد الابطال به من زياده قوله : « فاما ياتيكم مني  
معدى » ( ١٣ ) .

والواقع أن الأمر الثاني بالاميل لتأسيس لا للتأكيد لأن الأمر الأول علق به حصراً غير ما علق به الآخر فعلق بالأول العداوة والاستتار في الأرض والتمتع بما فيها إلى حين • ولا يمكن أن يكون في الأرض تعاد بين آدم وزوجه لأنه سبحانه أخبر في كتابه أنه خلقها له ليسكن إليها وجعل بينهما مودة ورحمة فأردت والرحمة بين الرجل وامرأته والعداوة بين الشيطان والإنسان ، وقد تقدم ذكر آدم وزوجه وإبليس في قوله تعالى : « فإلهما الشيطان فأخرجهما مما كانا فيه فلماذا يعود التضمير على بعض المذكور ؟ » •

والأمر بالاحتياط الثاني لأدم وجواء والمراد هنا وزواجهما لأنهما  
نساء كلتا أملاك الأبدن ومنشعبهم جميعاً كانتهما الأرض بطييف ذكر  
التفريقين المتقابلين من المهتدين والضالين في قوله تعالى « فإما يأتينكم  
منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين  
تفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » فالكل

(01) 226 072 42 75 71 .

• (۱۴) الکشاف ۱/ ۲۷۴

(٥ - البعثة)

10

الآيات في مقابلة متابعة الهدى كان معنى متابعة الهدى التصديق بالآيات ويؤيد ذلك أيضا تأكيد الجمع بلفظ جميعا إذ فيه إشارة إلى أن الأهابط من الجنة ليس خامسا بآدم وحواء لزلتهما ، وإنما هو قضاء محتوم وأمر مبرم قضى به الحق سبحانه وهو لا يدخل الجنة بعد ذلك أحد من آدم وحواء وذريتهما إلا بعد تكليف معين يؤهل من اتبعه للعودة إلى الجنة أو دخولها ابتداء حينما يأتي أمر الله (١٤) .

فالأمر بالهبوط ثانيا كان بعد التوبة وكان تحقيقا للوعد المتقدم في قوله تعالى : « إني جاعل في الأرض خليفة » وفي سورة الأعراف وردت لفظة « أهبط » مسندة إلى المفرد أولا ومسندة إلى ضمير الجمع ثانيا فالأمر بالأهابط أولا في قوله تعالى : « قال فأهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرجك أنك من الصاغرين » (١٥) .

فقد اقترن الخروج بالأمر بالهبوط لما في الخروج من الذلة والمهانة والتوبيخ وعدم العود إليها مرة أخرى ولذلك اقترنت بما يدل على هذا المعنى كما في هذه الآية « فأخرجك أنك من الصاغرين » وقد يقتصر النظم القرآني على لفظة الإخراج فقط كما في قوله تعالى : « فأخرج منها فانك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين » (١٦) .

وأما الأمر بالأهابط ثانيا في قوله تعالى : « قال أهبطوا بعضكم لبعض عدو » فلما سبق تحريره في سورة البقرة ، وفي هذه الآية

« (١٤) متشابه النظم القرآني في قصة آدم عليه السلام من ٢٠٥ .

« (١٥) سورة الأعراف آية ٢٢ .

« (١٦) سورة الحجر آية ٢١ ، ٢٢ .

وغيرها أفرد لفظ عكس وأوقع خبراً عن جمع لأن المراد به جمع إذ هي في معنى المنذر ، ونحوه قوله تعالى : « فانهم عدو لى » (١٧) وقوله : « هم العدو فاحذرهم » (١٨) .

وفي سورة طه ورد الأمر بالهبط على صيغة المثنى في قوله تعالى : « قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو » الضمير في قوله « اهبطا » إنما أن يرجع إلى آدم وإبليس ، ولم تذكر الزوجة لأنها تبع له ، وكأنهما فريقان بحسب ذريتهما متعاديان ، ولهذا أتى بضمير الجمع في الجملة الثانية وهي قوله تعالى : « بعضكم لبعض عدو » ومما يدل على أن المراد فريق آدم بحسب ذريته ، وفريق إبليس بحسب ذريته وأعوانه التأكيد بلفظ جميعاً إذ هما أبوا الثقلين وأصلا الذرية من الانس والجن فذكر حالهما ومآل أمرهما .

ومما يدل أيضاً على أن الضمير في قوله اهبطا لآدم وإبليس أن الله سبحانه لما ذكر المعصية أفرد بها آدم دون زوجته فقال : « وعصى آدم ربه فغوى » ثم اجتباها ربه فتاب عليه وهدى » فان المقصود اختيار الله تعالى الثقلين بما جرى على أبويهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر فذكر أبويهما أبلغ في حصول هذا المعنى من ذكر أبوى الانسان فقط ، ومن ثم خلصت العناية .

#### خطاب الأفراد المراد منه الجمع :

من المعلوم أن رسول الله ﷺ هو المبلغ عن الله عز وجل ما نزل من الوحي بواسطة ملك الوحي جبريل عليه السلام . ونجد الخطاب كثيراً ما يوجه إلى الرسول ﷺ ، ولكن المراد منه أمته .

(١٧) سورة الشعراء آية ٧٧ .

(١٨) المنافقون من الآية ٤ .

كها في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله حين كنتم أغنياء من نعمه » حيث أن الظاهر أن الخطاب لمحمد ﷺ والمراد أمته — عليه السلام — وذلك : لأدري : (٨٧) « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله حين كنتم أغنياء من نعمه »

الأول : أنه رسول من عند الله معصوم لا يصح عنه ما يوجب أن تصبه بسببته .

الثاني : أنه لم يتقدم الآية ذكر الإنسان ولا خطبه ، وإنما تقدم ذكر الطائفة فالمراد جنس بني آدم . هذا على قول . وقد قالت طائفة أخذه بالظاهر هو محمد ﷺ ويرجع ابن القيم أن تكون صورة الخطاب له ﷺ ، والمراد العموم بقوله تعالى : « يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين » ، إذ أن هذا المعنى هو الأليق بمقام النبوة ، وهو الإبلغ في السياق لكونه ﷺ — هو الوجه لأمره بالوحى ، وهو الأصل والمطلع للأمة ، ولتكونه أمام الحائض ومبتوعهم ، فافترد بالخطاب وتبعته الأمة في حكمه ، وهذا التعبير جار مجرى من يقول لمقدم السباكر كالسلطان ونحوه : اخرج هذا ، وإفرك بمكان كذا ، واجعل على العود وقت كذا ، ..

ولاشك أن أفراد الجيش داخلون في المعنى بطريق أولى ومن نظائر هذه الآية قوله تعالى : « واتبع ما يوحى إليك » وقوله : « وتوكل على الله » ، وقوله : « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أثرتك لجحبت عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » ولا يتصور الشرك منه ﷺ ومنه قوله تعالى : « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك » .

فالخطاب لمحمد ﷺ ولكن يتناول غيره من جميع الأمة بطريق الأولى ، هذا مفاد كلام ابن القيم ، وقد أتى بنظائر الآية التي بمصدر

تفسيرها على المعنى السابق ويمكن أن يضاهى إلى ما ذكرناه ابن القيم  
سراً بلاغياً أكثر من مثل هذه المخالفة حيث لا يطرأ على بعضها مخالفة  
البلاغية لا تتراحم والقرآن جمال أوجه ، وهو إفادة معنى التهيج  
والإلهاب (١٩) .

والتهيج مأخوذ من قولهم : حاجت الحربه اذا عارت والالهب  
مأخوذ من قولهم : ألهب النار اذا أشعرها حتى التهمت وطال لبسها هذا  
معناها في اللغة ، وأما في اصطلاح علماء البلاغة فقد ذكر صاحب  
الانوار بقوله : « هما مقولان في كل كلام ذاك على النص على الفعيل  
من لا يتصور منه تركه ، على ترك الفعل لأن لا يتصور منه جعله ،  
ولكن يكون صدور الأمر والنهي من هذه حالة على وجه الإلهاب  
والتهيج له في الفعل أو الكف لا غير . »

ثم يعقب العلوي بقوله : « هذان قد عان من الكلام يرادان في  
الكلام الفصيح والخطب البليغة ، وأولاً موقعهما في البلاغة أحسن  
موقع لما وردا في كتاب الله تعالى الذي أعجز الثقلين الاتيان بمثله  
أو بأقصر سورة من سوره » (١٩) .

ويلاحظ من كلام العلوي قصر هذا المعنى على كلا من الأمر  
والنهي ، وإن كان من الممكن أيضاً دخول بعض ألوان الخطاب بأسلوب  
الخبر كما ذكر ابن القيم ، وهذا اللون من الخطاب فيه تنبيه بليغ  
للمخاطب وتوقيف له على أمر عظيم كما في قوله تعالى : « فاستقم كما  
أمرت » .

فالمخاطب للرسول ﷺ والمراد منه على جهة التبع أمته اذ الأمة  
أيضا مأمورون بالاستقامة والتبعية والإلهاب للرسول ﷺ ولألمته .

ولذلك عندما نزلت هذه الآية قال ﷺ « شيعتي هود » والعرض  
من ذلك هو حثه ﷺ على مداومة الفعل المأمور به والازدياد منه ،  
وبالنسبة لألمته يكون المراد طلب المداومة على الاستقامة والازدياد منها  
والتبعية والإلهاب هو الذي يؤدي الى اثاره كوامن الاحساس في  
نفوسهم قائلين اذا كان رسول الله ﷺ يؤدر بذلك وهو المعصوم والذي  
لا يتصور منه خلاف الاستقامة فما بالنا نحن نحيد عنها أحيانا فيكون  
هذا دافعا لهم الى الحرص على الاستقامة والازدياد منها .

ومنه قوله تعالى : « يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين  
والمنافقين » فالمخاطب له ﷺ ، والمراد : المؤمنون لأنه ﷺ . كان تقيا  
— وحسنه — من طاعة الكافرين والمنافقين ودليل هذا التوجيه وما ورد  
عليه الخطاب المختتم به هذا النظم حيث كان على صيغة العموم .

ويرى الزركشي أن هذا التوجيه لا يتيسر في كل حال ، ففي قوله  
— عز وجل — : « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من  
الجاهلين » لا يمكن القول بصرف الخطاب الى الأمة ، وإنما ظاهر  
السياق أنه له ﷺ وقد يحمل هذا الأسلوب على التعريض كما في قوله  
تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له  
كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين » .

فالمخاطب له ﷺ في الظاهر ، وإن كان في الحقيقة على قصد  
التعريض بغيره والمعرض بهم هنا « النصارى » الممترون في الالهية .

(٢) الكشف ٣٦٧/١ - ٨٧٢ - م. من المجلد الثاني (٤)



«القدماء» ، وقد حصل أكثره على المجاز ، وكلام الزمخشري يشير إلى هذا المعنى لقوله : « فيستعملون ~~كلا~~ واحد ~~كلاهما~~ مكان الآخر لاشتراكهما في الجمعية » ويعنى هذا أن استعمال جمع الكثرة هنا مكان جمع القلة على المجاز لوجود صفة مشتركة بين المعنى المنقول منه والمعنى المنقول اليه ، وهو اشتراكهما في الجمعية ويرى أن السراغى أشار جمع الكثرة على القلة ، لأنه أى جمع الكثرة أكثر استعمالاً فى جمع « قرء » من « اقراء » ، فنزل اقراء لقلة استعماله منزلة المنهمل فى هذا السياق .

والقرء فى اللغة : أصله الوقت المعتاد ترده ، ومنه قرء النجم لوقت طروعه وافرله ، ويطلق على الحيس ، وقيل : أصله : الخروج من طهر إلى حيض أو عكسه ، وقيل : السرة : السيس مع الضير ، وقيل : السراغى جمع القروء على أكثره مع وجود جمع القه اقراء هو أنه لما جمع المطلقات جمع القروء ، لأن دل مطلقه يربط ثلثه أسراء بهذا الاعتبار يصير عدد الأقراء كثيرة يتناسب معه جمع الكثرة ، وعلى هذا التوجيه لا يكون هناك جمع كثرة وضع موضع جمع القه ، وإنما بالجمع هذا بقاء على أصله فى الكثرة وقيل : أن قروء جمع قرء بفتح القاف ، فلو جاء على اقراء لجاء على غير القياس ، لأن أفعالا لا يطرد على فعل يفتح الفاء ، ويرى الدكتور محمد أبو موسى : أن جمع الكثرة فى قروء يشير إلى وجوب الاحتياط فى استيفاء مدة العدة حتى لا تتمحل المرأة المطلقة عدتها ، وقد أشار إلى هذا بعض النحاة (٣) .

ويرى الزمخشري أن قوله تعالى : « بأنفسهن » على العكس مما سبق قد وضع فيه جمع القلة مكان جمع الكثرة فيقول : « ألا ترى إلى قوله « بأنفسهن » وما فى النفوس كثيرة » ويلهم من كلامه أن هذا

(٣) انظر الزمخشري ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(٣) البلاغة القرآنية ص ٢٢٨ .

الجمع مثل سابقه جاء على الاتساع ، ولكنه بين السر البلاغي في ذكر النفس فيقول : فان قلت : هلا قيل : يتربصن ثلاثة قروء كما قيل : تربص أربعة أشهر ، وما معنى ذكر النفس ؟ قلت : في ذكر النفس تبيح لمن على التربص ، وزيادة بحث لأن فيه ما يستغف منه فيحملن على أن يتربصن ، وذلك أن أنفس النساء طويع إلى الرجال فأمرن أن يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص (٤) .

فالتعبير بالنفس هنا إشارة إلى أن نفس المرأة شديدة الميل إلى اللذات والشهوات فعملها أن تناقت نفسها إلى الرجل في وقت انحد أن تجاهد نفسها وأن تغلب هواها وأن تنتظر حتى تكتمل المدة بدليل قوله تعالى : « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر » ، وإذا كان التعبير بأنفسهن فيه إيحاء إلى معجزة نفوسهن حينما تغالبن الشهوة ويقررن إلى الرجال فإن التعبير بقوله تعالى : « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن » فيه لضع أقوى وأشد وأنكى ، وكأنه يشير إلى أن بعضهن يفعلن هذا ففي هذا الأسلوب ترقى بتدرج من الإشارة والإيحاء إلى ما هو كالتصريح .

ويرى الدكتور محمد أبو موسى : أن النفس استعملت هنا مكان جمع النكرة لتشير إلى معنى التثقيب والتثمين من شأن هؤلاء النسوة ، وأنهن يضعفن أمام نوازع النفس وشهواتها فالآية الكريمة تحدد عدة المرأة المطلقة ، وتوجي بكامل هذه المدة وتتامها غاية التمام وأسلوبها فيه تشديد على المطلقة في هذا الموقف وفيه لضعات . فكلمة «يتربصن» تشير إلى أنها تعالج أمر نفسها الطامحة إلى الزواج (٥) .

(٤) الكشف ١/ ٣٦٥ .

(٥) البلاغة القرآنية ٣٢٣ .

وفي قوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبئت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة » يقول الزمخشري :  
 فان قلت : هلا قيل « سبع سنبلات » على حقه من التمييز بجمع القلة  
 كما قال : « وسبع سنبلات خضر » ؟ قلت : هذا لما قدمت عند قوله :  
 « ثلاثة قروء » من وقوع أمثلة الجمع متعاقبة مواقعها (٦) .

يعنى أنه من باب الاتساع ووقوع أحد الجمعين موقع الآخر ،  
 وهذا الذى قاله الزمخشري لا يستقيم لا سيما فى ميدان ابراز النكات  
 البلاغية لاستعمال صيغة واشارها على غيرها ، فكلامه هذا أشبه بكلام  
 من قال فى كل شىء قدم انه قدم للمعناية والاهتمام .

لكن ما سر هذه العناية وهذا الاهتمام هذا ما نبه اليه عبد القاهر ،  
 فالزمخشري يرى فى كل جمع وضع موضع الآخر أنه من باب الاتساع ،  
 لكن فى الحقيقة هناك ، سر بلاغى فى استعمال جمع الكثرة فى قوله  
 تعالى : « سبع سنابل » فيه إشارة الى مضاعفة الثواب وكثرته ،  
 لجمع القلة لا يوحى بهذه الكثرة هذا بالإضافة الى ما قاله السمين  
 الحلبي وهو : « أن المميز ان كان جمع كثرة فان كان باب مفرد  
 « كسنابل » أوثر على جمع التصحيح كقول ثلاثة أحامد ، وثلاث  
 زينات ، ويجوز قليلا « ثلاثة أحمدين ، وثلاث زينبات » (٧) .

فيكون ما جاء فى النظم الكريم على الوجه المختار وأما فى قوله تعالى :  
 « وسبع سنبلات خضر » فقد عدل عن « سنابل » كما بينا الى « سنبلات »  
 لأجل جاورته سبع بقرات هذا بالإضافة الى أن المقام هنا يختلف عن

(٦) الكشف ١/ ٣٩٣ .

(٧) الدر الحصون ٢/ ٥٨٠ .

مناجاة فالمقام هناك مقام اخبار بمضاعفة ثواب انفاق المال في سبيل الله وكثرته كما يوحي به التشبيه فتناسبه جمع الكثرة .

بينما المقام هنا يختلف اذ يفيد التهوين والتقليل من شأن السنبلات انخفض لما روى من انه رأى سبع سنبلات فحفر قد انمقد حبهها وسبعا آخر يابسات قد استحصدت وادركت فالتوت اليابسات على انخفض حتى غلبن عليها ٠٠٠ (٨) فيتناسبه جمع التصحيح المستفاد منه القلة .

وفي قوله تعالى : « لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » جاء بجمع القلة هنا دون جمع الكثرة « أذلاء » ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلا ، وذلتهم ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح « المال والمركوب » .

فلاشعار بالقلّة جاء من صيغة جمع القلة ، وهم مع قلة هم موصوفون بالذلة أى الضعف في العدد والعدة اذ المقام بالامتنان عليهم بالنصر في هذه الحال الموجب للمسارعة الى التقوى وحق المنعم بشكره على نعمه .

وفي موضع آخر نجد جمع القلة يتبع بوصف يفيد الكثرة لأن المقام يقتضى الكثرة كما في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة .. » في الآية نهى المؤمنين عن أخذ الربا مع افادة توبيخ المتعاملين بالربا المؤدى الى تضعيف المال عن طريق زيادة الدين لزيادة الأجل مما يؤدي الى كثرة المال ومضاعفته في أيديهم ، « فأضاعفنا » جمع ضعف وهو جمع قلة ، ولكن لما كان المقام لتكثير اتباع بوصف يدل على الكثرة وهو قوله « مضاعفة » .

وقد يعبر بجمع القلة إلا لأنه قليل في نفسه وإنما قلته لأضافته  
إلى مقابله كما في قوله تعالى : **حَدَّثْنَاهُ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ**  
**أَعْيُنٍ** » يقرئ الزمخشري : وإنما قال : « أعين » دون عيون لأنه أراد  
أعين المتقين ، وهي قليلة بالأضافة إلى عيون غيرهم قال تعالى : **« وَتَقِيلُ**  
**مِنْ عِبَادِي الشُّكْرَ » (٩) .**

هذا بالأضافة إلى القلة المستفادة من تنكير « أعين » أي أن  
التقيل مستفاد من صيغة جمع القلة ومن تنكيرها ، وقد ذكر الزمخشري  
أن تنكير « أعين » لأجل تنكير القرة لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره  
إلا بتنكير المضاف إليه ، أي تنكير المضاف فلإفادة معنى التفضيل  
والتعظيم أي هب لنا من أزواجنا وذرياتنا سرورا لا يكتنه كنهه  
ولا يقادر قدره .

وقد يكون التقيل في العدد من عدة وجوه كما في قوله تعالى :  
« **أَنْ هَلْ لَّشِرْذِمَةِ قَلِيلٍ** » فلفظة الشرذمة تفيد القلة إذ معناها :  
الطائفة القليلة ، ومنها قواهم « **ثَوْبٌ شَرَاذِمٌ** » الذي يلي وتظهر قطعا ،  
وهذا يفهم أنه بالأضافة إلى القلة الصريح والتقدير من شأن هذه  
الطائفة من بني إسرائيل ، ثم جاءهم قاتلهم الموصوف الذي استفيد منه  
القلة بذكره ، ثم استفيدت القلة أيضا من الجمع « **قَلِيلِيُونَ** » ليعلم أن كل  
حزب منهم قليل ، واختير جمع السلامة أيضا الذي هو لغة حيث دخل  
عن « **قَلِيلٍ** » ، وقد يجمع القليل على أقله ، فهذه أربعة وجوه استفيد  
منها التقيل ، وذكر ابن كثير وجهًا خامسًا بالأضافة إلى ما قتله  
الزمخشري وهو أن جمع الصفة ، والموصوف مفرد بكونه مبالغة  
في الحق ذلك الموصف بالموصوف وتناهيه فيه بالنسبة إلى غيره من

الموصوفين به كقولهم : زيد جباغ مبلغة عن وصفه بالجوع ، فكذا  
هنا جمع « قليل » وكان الأصل اقزامه فيقول لشرذمة قليلة كذا لمرد  
في قوله : « كم من فئة قليلة » ليذلل بجسمه على تناهيهم في القلة  
وقد ذكر الزمخشري هذا المعنى الذي وجه به ابن الكلبي وصف المفرد  
بالجمع للمبالغة والتأكيد عند قوله تعالى : « فاضرب لهم طريقا في  
البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى » حيث ذكر أن « يبسا » صفة  
لـ « طريقا » من وصف المفرد بالجمع لكون « يبسا » جمع يابس  
للتأكيد أي تأكيد وصف الطريق باليبس فجعل الطريق لفرد يبسا  
كاليبس ، والمعنى : ليس فيها ماء ولا طين ولا ندى ، أو يقدر كل جزء  
من أجزاء الطريق طريقا يابسا فكانت كذلك ، لأنها كانت اثني عشر  
طريقا لكل سبط طريق ، ونحو هذا المعنى ما ذكره القشيري :

كان قنود رحلى حين ضمت حوالب غزرا ومعى جيلعا

جملو لفرد جوعه كجماعة جباغ •

ولا شك أن المقام يقتضى هذه القلة المبالغ فيها على نحو ما بينا  
فيكون المراء منها أقل الغليل ، وهذا يؤدي إلى التهوين والتحقير من  
شأنها لأن هذه الجملة « ان هؤلاء لشرذمة قليلون » قيات على لسان  
فرعون لعنه الله — وقد حكاهما القرآن عنه ، وذلك عندما أعلن النفي  
العام وأمر بما يسمى في عصرنا « بالتحجبة بالعامية » فأرسله في المداخن  
جاشرين يجمعون له الجند ليذكره موبى وقومه ، حيث أوحى الله  
اليهم أن يسيروا بهاد وأقرباءهم ليلا ، ولتخبره الأولى عز وجل بأن  
فرعون سيتبعهم بجنوده ، فلكي يطمئن فرعون جنوده التي جمعت له  
من المداخن ويرفع من معنوياتهم قلل من شأن عددهم تقليلا يؤدي إلى  
التحقير والتهوين من شأنهم ، ولما كان فرعون وملؤه يظنون مدى

قوة موسى - عليه السلام - وجنده مما يؤدي الى الشك في هذه  
المقولة ، أكدهما بان واللام لكي يزيل الشك من نفوس الجنود فقال :  
« ان هؤلاء لشركمة قليلون » ففهم اذن ذلك الاهتمام بأمرهم  
والاحتشاد لهم وهم شركمة قليلون .

وقد يأتي جمع القلة في سياق الكثرة ، وقد تقدمه - أي جمع  
القلة - نفى لينبه بنفى القلة على نفى الكثرة من باب أولى وذلك في  
قوله تعالى « ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من  
بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم » من المعلوم  
أن كلمات الله تعالى غير متناهية ، ولكن الله تعالى يقرب إلينا هذا  
المعنى في صورة محسوسة مشاهدة منتزعة من البيئة لكي تعيها عقولنا  
وهي لو أن جميع ما في الأرض من شجر تحول أقلاما ، وجميع ما في  
الأرض من بحر تحول مدادا بل أن هذا البحر تمدد سبعة أبحر كذلك ،  
وجلس الكتاب يسجلون كلمات الله المتجددة الدالة على علمه المعبرة  
عن مشيئته فما الذي يحدث ؟ لقد نفدت الأقلام ونفذ المداد ونفدت  
الأشجار ونفدت البحار ، وكلمات الله باقية لم تنفذ لأنها غير متناهية  
فهذه أجرام محدودة ، وكلمات الله غير محدودة ، ومهما يبلغ المحدود  
فسينتهي ، ويبقى غير المحدود لم ينقص شيئا على الإطلاق ..  
هالمقام هنا للكثرة المطلقة ، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا عدل عن جمع  
الكثرة الى جمع القلة في قوله : « ما نفدت كلمات الله » ؟

يقول الزمخشري : فإن قلت : الكلمات جمع قلة ، والموضع موضح  
التكثير لا التقليل ، فهلا قيل : كلم الله ؟ قلت : معناه أن كلماته لا تنقضي  
بكتابتها البحار فكيف بكلمه .

وفي ذلك دلالة على أن هذه الأشياء على كثرتها لا تبلغ تسجيل

القليل من كلمات الله المتمثلة في علمه وإرادته ومشيبته فما بالك بالكثير من كلمة سبحانه وتعالى فنبه بنفى تقلد القليل من كلماته — سبحانه — على نفى الكثير من باب أولى .

ومن وضع القلة موضع الكثرة قوله تعالى « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم .. » فالخروج بماء السماء ثمار كثيرة فلم جاء بجمع القلة ؟

ويوضح الزمخشري هذا التساؤل فيقول : فإن قلت : فالثمر المخرج بماء السماء كثير جم ، فلم قيل الثمرات دون الثمر والثمار ؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما : أن يقصد بالثمرات جماعة الثمرة التي في ثورك فلان أدركت ثمرة بستانه ، تريد ثماره فهو جمع للثمرة المراد بها الكثرة وهي الثمار فيكون أبلغ ، ولأن الثمار اذا تلاحقت واجتمعت يطلق عليها الثمرة . ونظيره قولهم : كلمة الحويدرة لقصيدة ، وقولهم : فلان التي كلمة في المحفل والمراد بها خطبة أو محاضرة .. وعلى هذا يكون جمع الثمرات جمعا للثمرة المراد بها جمع الكثرة .

والوجه الثاني أن الجموع يتناول بعضها بعضا أى أن جمع القلة في الآية وقع موقع جمع الكثرة ، وكما في قوله تعالى « كم تركوا من جنات وعيون » (١٠) لأن كم للتكثير فلا يجوز أن يميز بجمع القلة إلا على أنه واقع موقع جمع الكثرة .

ويلاحظ أن الجنة في القرآن لم تجمع على جنان في أى موقع



ولعل ذلك لتقل الكلمة وتبويها عن الذوق ، وعدم تلاؤمها في النظم  
القرآني لفوات الانسجام الصوتي في صيغة الجمع حيث لم يفصل بين  
التنوين سوى الف المد وهو فاصل ضعيف .

وبين الألهسي ما يومىء اليه جمع القلة بناء على ما هو حاصل  
من ثمرات الدنيا المتشاهدة ، فلهما كثرت فهي قليلة بالنسبة الى  
ما أعد الله للمؤمنين في الآخرة فهي كثيرة جدا فيقول :

وأتى بجمع القلة مع أن الموضع موضع الكثرة . . للإيماء الى أن  
ما برز في رياض الوجود يفيض مياه الجود كالقليل بل أقل القليل  
بالنسبة لثمار الجنة ، ولما ادخر في مملك الغيب (١١) .

وقد اعترضه البصير الجليلي على ما ذهب اليه الزمخشري من  
وقوع جمع القلة موقع جمع الكثرة مبينا أنه لا حاجة تدعو الى هذا  
لأن جمع السلامة المحلى بأن التي للعوم يقع للكثرة فلا فرق اذا بين  
الثمار والثمار ولذلك رد المحققون قول من رد على حسان  
ابن ثابت - رضى الله عنه - قوله :

لنا الجففات الغر يلعبن في الضحى  
قالوا : كان ينبغي أن يقول : الجفان ، وسيوفنا لأنه أمدح وليس  
بصحيح لما ذكرت (١٢) .

وقد يؤتى بجمع القلة لا لمدح التوزيع كما في قوله تعالى : «ولا تكونوا  
كالتي نقصت غزلها من بعد قوة أنكاثا» فكأن جمع فكك بمعنى انكثت

(١١) روح المعاني للأوسى ١/ ١٨٩ .

(١٢) الدر المحصون ١/ ١٩٤ .

هــى منقوض ، وهذه الآية ينهى الله فيها المسلمين عن نقض العهود المبرمة بينهم وبين الآخرين ولا يكون حالهم في هذا النقض كحال المرأة التي عدت الى غزلها بعد ما أحجته وأبرته منقضت وجعلته أنثى أى أنواعا من النكث والنقض ، فلم يبق النقض على نمط واحد وإنما صار أنماطا وأنواعا متعددة لمساغى ذلك من الدلالة على جملتها وشدة خرقها ولذلك أُوثر الجمع فى « إنكاث » على الافراد لتتوحيح النكوث ، وأوثر جمع القلة للملازمة للمقام الذى يقتضى القلة اذ كلما جزئية فى الآية تحقر وتقلل من شأن من ينقض العهود الذى تشبه حالته هذه بحالة تلك المرأة الملتاثمة فى عقلها المستطربة فى تصرفاتها ، ومن ثم عدل النظم الكريم عن ذكرها باسمها لاستئذان التصریح به الى الوصف المستفاد من لفظ الصلة للإشعار بأن الناقصة جامعة لمعان توجب انحطاط شأنها ، وضعف عقلها .

وقد يجري جمع القلة مجرى جمع الكثرة لعدم ورود غيره - أي غير جمع القلة - في السماع فيتعين ليكون صالحا لافادة القلة المستفادة من صيغته ؛ أود افادة الكثرة بإجرائه مجرى جمع الكثرة على حسب المقام كما في قوله تعالى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون .

يقول الزمخشري: والألفظة في غزاد كالأغربة في غراب وهو من  
جوع الفظة التي جرت مجرى جموع الكثرة والقلة إذ لم يرد في  
السمع، غيرهما كما جاء تشدوع في جمع شمس لا غير فجبرت ذلك  
المجرى (١٣) •

والمقام هنا للكررة ، لأن الخطاب هي قوله تعالى « أخرجكم »

عام وقد تأتي مفيدة للقلّة في سياق آخر لأن المفهوم من كلام  
لزمخشري أنها من الجفوع المشتركة بين الجمعين تستعمل تارة في  
الكثرة وتارة في القلة على حسب المقام .

ومن قيام جمع القلة مقام جمع الكثرة ما نجده في جمع آية على  
آيات في قوله تعالى : « ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل  
والنهار آيات لأولى الأبصار » أي دلالات على وحدانية الله تعالى وكمال  
قدرته وعظمته ، ولا شك أن هذه الآيات كثيرة وعظيمة لدلالة السياق  
عليها فإن الآيات المنبئة في خلق السموات والأرض وابداعها كثيرة  
عظيمة وجمع القلة هنا قائم مقام جمع الكثرة ولعل السر في ذلك :  
أن فيه إشارة وإيقاظ إلى أن الآيات الظاهرة وإن كانت كثيرة في نفسها  
إلا أنها قليلة في جنب ما خفي منها في جزائن العلم ومكامن الغيب  
ولم يظهر بعد » (١٤) .

وقد يتبعه بجمع القلة على الكثرة كما في قوله تعالى « شاكرًا  
فإنعمه إقباه » وهما إلى صراط مستقيم » أنعم جمع قلة ، ونعم الله  
وعلى خليل الله إبراهيم - عليه السلام كثيرة فلماذا عبر بالقلة هنا ؟  
والجواب أنه أوتر حنيئة بجمع القلة للايقاظ بأنه عليه السلام لا يخلو  
بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة ، وللتصريح بأنه - عليه السلام -  
على خلاف ما هم عليه من الكفران بأنعم الله تعالى (١٥) .

ويأتي جمع القلة في مقام البشري للمؤمنين بدخول الجنات  
كما في قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم

(١٤) روح المعاني للألوسي ١٥٦/٢ ٢١٢٢٥ م (١٩٧٥)

(١٥) روح المعاني ٢٥٠/٥ .

الفصحى من حيث أن الفعل وما جرى مجراه إذا قدم على الفاعل  
وحد تقول : تخشع أبصارهم ، ولا تقول : تخشعن أبصارهم ، وحملوه  
على لغة طيء يقولون : أكلوني البراغيث •

وفي قوله تعالى : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف  
الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار » (٢١) جمع آية على آيات جمع  
وؤنث سالم وهو لا يفيد الكثرة وأما يفيد القلة ، وآيات بمعنى دلالات  
على وحدانية الله تعالى وكمال علمه وقدرته فالقيام يقتضى الكثرة  
لا القلة ، ولذلك قيل : إن جمع النملة هنا قائم مقام جمع الكثرة دلالة  
التنوين فيها إذ يفيد التفضيم والتعظيم كما وكيفاً أى آيات كثيرة  
عظيمة •

وقيل فى ذلك رمز الى أن الآيات الظاهرة وإن كانت كثيرة فى  
نفسها إلا أنها قليلة فى جنب ما خفى منها فى خزائن العلم ومكامن  
الغيب (٢٢) •

وفى قوله تعالى : « وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء » يقول  
الألوسى إن التنوين فى « رجالاً » و « نساء » للتكثير ، و « كثيراً »  
نعت لـ « رجالاً » يؤكد لمساأفاده التكثير ، والأفراد فى « كثيراً »  
باعتبار معنى الجمع فيها أو العدد أو لرعاية صيغة فعيل فإنه يراد  
منها الجمع ، وليس المراد بالرجال والنساء البالغين والبالغات فقط  
بل الذكور والإناث مطلقاً ولعل إثباتهما على الذكور والإناث لتأنيده

(٢١) آل عمران آية ١٩٠ •

(٢٢) انظر : روح المعاني للألوسى ١٥٦/٤ بتصرف •

قراءة شاذة وهي قراءة عبد الله بجمع التكسير : « فالصالح قوائمه ،  
 هوافظ » علق عليها ابن جنى في المختص بقله :

« وهي أشبه بالمعنى لأعطائها الكثرة وهي المقصودة هنا » (١٧) •

وعلى هذا تكون الكثرة في « الصالحات » ليست مستفادة من  
 صيغة الجمع وإنما هي مستفادة من « آل » المفيدة للاستمرار وهي  
 للعموم ، وإذا ثبت أن الصالحات جمع كثرة لزم أن يكون « قانتت »  
 « حافظات » للكثرة أيضا لأنه خبر عن الجميع فيفيد الكثرة ألا ترى  
 أنك إذا قلت : « الرجال قائلون » لزم أن يكون كل واحد من الرجال  
 قائما ، ولا يجوز أن يكون بعضهم قاعدا (١٨) •

ونعود إلى الترغبات ثمانية فنقول : وردت هذه اللفظة جمع مؤنث  
 كما مر ، وجمع تكسير في آيتين في قوله تعالى « والذين آمنوا وعملوا  
 الصالحات لنبوئهم من الجنة غرفا » ( العنكبوت : ٥٨ ) وقوله تعالى :  
 « لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من  
 تحتها الأنهار » ( الزمر : ٢٠ ) ووردت مفردة في آية واحدة في قوله  
 تعالى : « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا » ( الفرقان : ٧٥ ) فكيف  
 نوفق بين هذه المواضع كلها لتتلاقى جميعا في معنى التعظيم والتكثير  
 المفاسيين للمقام نقول — وبالله التوفيق — :

ان ورودها نكرة وجمع تكسير في موضعين يفيدان التعظيم  
 والتكثير • التعظيم مفاد من مجيئها نكرة ، والتكثير مستفاد من صيغة

(١٧) المختص ب١/١٨٧ •

(١٨) انظر : الدر المنصور ٣/٦٧٢ •

جمع التكسير ، وأما ورودها جمع تصحيح فلما ذكرنا من أن الكثرة مستفدة من أداة التعريف « ال » المفيدة للعموم ، وأما ورودها مفردة بالإنفاد الجنس وهو تحته أفراد كثيرة واستفيد منه أيضا سمو الدرجة ورفعة المنزلة ، فالغرفة: الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها ولذلك يقول الزمخشري : المراد : يجزون الغرفات وهي العالى في الجنة فوجد اقتصارا على الواحد على الجنس والدليل على ذلك قوله تعالى : « وهم في الغرفات آمنون » (١٩) •

أى والدليل على أن المراد بالغرفة الجنس مجيئها أفرادا وجمعا على « سبأ » فالجمع دل على أن المراد بالغرفة الجنس لتوافق القراءتان ، ويمكن أن يقال : القرينة هي اثبات الغرفة الواحدة للجماعة وأما فائدة العدول في هذا المقام فلا تباد ترتب الحكم على الأوصاف المشتركة بخلافه في « سبأ » فإنه مرتب على الإيمان والعمل الصالح مطلقا ، ولا ارتباط في التناوب في الأعمال فتناسب الجمع ليتفاوت الجزء بحسب العاملين وأما الأفراد فيها فمن باب حمل المطلق على المقيد (٢٠) •

واسم الإشارة « أولئك » يفيد تأكيد استحقاق الخبر للمبتدأ وهو ما بعد اسم الإشارة من نيل الدرجة العالية والمنزلة العظيمة في الغرفات فالشار إليهم جديرون بهذه المنزلة من أجل تلك الأوصاف العظيمة التي أجريت على عباد الرحمن ، فكان من حق الظاهر أن يجاء بدل بما حبروا بما فعلوا ليكون كناية عن تلك المذكورات بأسرها فصار هائدة العدول ٢

(١٩) الكشاف ١٠٢/٣ •

(٢٠) تحفة الأشراف ٨٠٨ القسم الثاني •

قيل : فائدة : الايدان بأن ملاك العبادات الصبر ، وأن جسد النفس على طاعة الله هي الجالبة ، وقطعها عن مشتتها هي المرام .

وفي قوله تعالى : « قال يا ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن » نجد الضمير في قوله « فطرهن » يعود على السموات والأرض وجاء على جمع القلة أولاً وثانياً هذا الضمير لمن يعقل . أما اعتبار القلة فلأن السموات والأرض أي عددهما لم يبلغ حد الكثرة ، وهذا ما قاله أبو حيان باعتبار أن السموات سبع والأرض واحدة وناقض السمين الملبى أبا حيان في ما ذهب إليه بأن السموات سبع والأرض سبع فيكون العدد أربع عشرة وهو فوق حد جمع الكثرة فيكون ما ذهب إليه أبو حيان غير مسلم .

ولكني أرجح أن أبا حيان يقصد مجمع العدد في السموات وهو سبع واعتبار الوحدة في الأرض فيكون المجموع ثمانية وهو دون جمع القلة كما قلت .

أما اعتبار إعادة ضمير من يعقل على السموات والأرض تشبيهاً لها بمن يعقل إذ أن لها طاعة وانقياد ، وقد وصفت في مواضع في القرآن بوصف من يعقل لما صدر ممنه من الأحوال التي تدل على أنها من قبيل من يعقل فإن الله تعالى أخبرنا بقوله « أتينا طائعين » وقوله « عليه السلام أملت السماء وحق لها أن تظلم » .

وورد اسم الفاعل مجموعاً جمع كثرة على قراءة أكثر القراء في قوله تعالى « خشعاً أبصارهم » وهذه القراءة هي التي أكثرها الرسم العثماني ، وقرأ بعضهم بالافراد « خاشعاً » بالتذكير ، وخاشعة بالتثنية ، وبعض المفسرين يرون أن قراءة الافراد جارية على اللغة

الفصحى من حيث ان الفعل وما جرى مجراه اذا قدم على الفاعل  
وحد تقول : تخشع أبصارهم ، ولا تقول : تخشعن أبصارهم ، وحملوها  
على لغة طيء يقولون : أكلوني البراغيث •

وفي قوله تعالى : « ان في خلق السموات والأرض واختلاف  
الليل والنهار آيات لأولي الألباب » (٢١) جمع آية على آيات جمع  
مؤنث سالم وهو لا يفيد الكثرة وإنما يفيد القلة ، وآيات بمعنى دلالات  
على وحدانية الله تعالى وكمال علمه وقدرته فالمقام يقتضى الكثرة  
لا القلة ، ولذلك قيل : ان جمع القلة هنا قائم مقام جمع الكثرة ، دلالة  
التنوين فيها اذ يفيد التفضيم والتعظيم كما وكيفا أى آيات كثيرة  
عظيمة •

وقيل في ذلك رمز الى أن الآيات الظاهرة وان كانت كثيرة في  
نفسها الا أنها قليلة في جنب ما خفى منها في خزائن العلم ومكانه  
الغيب (٢٢) •

وفي قوله تعالى : « وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » يقول  
الآلوسي ان التنوين في « رجالا » و « نساء » للتكثير ، و « كثيرا »  
نعت لـ « رجالا » مؤكدا لمساغاده التكثير ، والافراد في « كثيرا »  
باعتبار معنى الجمع فيها أو العدد أو لرعاية صيغة فعيل فانه يراد  
منها الجمع ، وليس المراد بالرجال والنساء البالغين والبالغات فخط  
بل الذكور والاناث مطلقا ولعل ايثارهما على الذكور والاناث لتأنيده

(٢١) آل عمران آية ١٩٠ •

(٢٢) انظر : روح المعاني للآلوسي ١٥٦/٤ بتصرف •



الكثرة والمبالغة فيها بترشيح كل فرد من الأفراد المبثوقة لمبدئية غيره  
عن طريق التنازل .

وقيل : خص الكبار بالذكر هنا لأنه في معرض المكلفين بالتفويض  
واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء بها ، لأن الحكمة  
تقتضي أن يكن أكثر أذ للرجل أن يزيد في عصمته على واحدة بخلاف  
المرأة . أو هو من باب الاكتفاء بوصف أحدهما للتغليب وهم الرجال  
فون النساء مع ما في مادة الفعل « بث » أيضا من الدلالة على  
الكثرة .

السمع لفظ مفرد ، وقد أضيف إلى ضمير الجمع ، والجمع لا يكون لهم سمع واحد ، فكان ينبغي أن يقول « وأسماعهم » كما قال « قلوبهم » و « أبصارهم » وهما قد اختلفتا لفظة السمع ، فلم وحدها

#### أولا - وضع الواحد موضع الجمع :

في قوله تعالى « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » السمع لفظ مفرد ، وقد أضيف إلى ضمير الجمع ، والجمع لا يكون لهم سمع واحد ، فكان ينبغي أن يقول « وأسماعهم » كما قال « قلوبهم » و « أبصارهم » وهما قد اختلفتا لفظة السمع ، فلم وحدها السمع أذن ؟

ويفهم من كلام الزمخشري أن الواحد وهو السمع قد وضع موضع الجمع « الأسماع » المراد به الأذان حتى يتناسب مع الختم ، لأن الختم على الأذان أي ختم الله على آذانهم السامعة ، فلا يصلح إلى قلوبهم من جهة إدراك ، كما أطلق الشاعر « البطلن » والمراد « البطلون » في قوله :

كلوا في بعض بطنكم تعفوا فان زمانكم زمن خميم

والمراد : اقتنموا بالقليل من الطعام تعفوا عن تناول الحرام .

ولم يجمع السمع لأنه مصدر ، وقيل : الكلام على حذف مضاف أي مواضع سمعهم أو يكون كنى به عن الأذن .. أو أنه لما أضيفت إلى السمع إلى ضمير الجمع دل على أنه يراد به أسماع الجماعة ، فيكون

قد عبر بالسمع وأراد الإسماع ، وهو معلوم من تسمير الجمع كما قاله  
الشاعر :

بها جيف الحسرى غامها عظماسها      فيبين وأما جلدتها فضاليب

انما يريد جلودها ، فوخذ لأنه قد علم أنه لا يكون للجماعة جلداً  
واحد وانما وحد السمع لأن لكل واحد منهم بهما واحداً كما يقال :  
أتانى برأس الكبشين يعني رأس كل واحد منهما ، ونقول : انما وحد  
السمع لأن مدركاته نوع واحد ناتج عن الصوت ، وأما البصر والقلوب  
فمدركاتهما أنواع متعددة ، وقدم السمع على البصر في معظم آياته  
القرآن الكريم ، لأن السمع يخلقه الله في الجنين قبل البصر فلتقدمه  
في الخلق قدم في الترتيب .

وقيل : ان السمع قدم لعموم مدركاته وشمولها ، فالبصر لا يدرك  
الا بعض الموجودات الحسية القريبة المواجهة للرائي بينما السمع  
يدرك من كل الجهات فهو أعم .

ثم ان العلوم انحصلة بالسمع الأصناف أضعاف العلوم الحاصلة  
بالبصر فهو يدرك الموجود والمعدوم والحاضر والغائب والترييب والتبعيد  
والراجب والممكن والممتنع ، وكذلك فان السعادة انما تتال بالسمعاد هو  
الطريق الى طاعة الرسل والايمان بما جاءوا به فالايمان طريقه  
السمع (١) ولأن السمع شرط النبوة بخلاف البصر ، ولأن السمع متى  
بطل بطل النطق ، والبصر اذا بطل لم يبطل الفهم ولأن بالسمع تصل  
نتائج عقول البعض الى البعض . وقدم البصر على السمع في ثلاثة  
مواضع في القرآن هي : قوله تعالى أبصر به وأسمع في سورة الكهف

فأبصر به وأسمع في سورة الكهف  
فأبصر به وأسمع في سورة الكهف  
فأبصر به وأسمع في سورة الكهف

وفي سورة السجدة : ربنا أهبنا وسمنا ، وفي سورة هود في قوله تعالى مثل الفريقين كالأنثى والأصم والبصير والسميع ..

ومن وضع الواحد موضع الجمع ما جاء في قوله تعالى : « ثم نخرجكم طفلا » .. فالطفل مفرد في اللفظ ، ولكنه يحمل معنى الجمع لدلالته على الجنس ، ولذلك وحده ، والعرب قد تسمى الجمع باسم الواحد ، قال الشاعر :

يلجئني في جيبها ويلمنني إن العواذل ليس لي بأمير

ولم يقل أمراء ، ومنه قوله تعالى : « أو الظفك الذين لم يظفروا على عورات النساء » .

وقال المبرد : هو اسم يستعمل مصدرا كالرضا والعدل فيقع على الواحد والجمع (٢) . كما تقول : رجل عدل ، ورجال عدل .

وقد يكون الغرض من الأفراد استقلال الفعل وهو الإخراج بكل طفل منكم واليه أشار الزمخشري بقوله : ويجتمع : نخرج كل واحد منكم طفلا ، وقد جمع هذا اللفظ في قوله تعالى : « وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم » الآية حيث لم يرد الجنس هنا كما في الآيتين السابقتين وإنما أراد النزع وهم الأطفال الأحرار دون المماليك ، لأنهم أي المماليك قد تقدم حكمهم سواء أبلغوا الحلم أم لم يبلغوه .

ومن الألفاظ التي تستعمل للأفراد والجمع والمقام هو الذي يحدد المراد منهما هي : الصديق والعدو والخطيب والخطيبين . وقد جاء لفظ الصديق في القرآن مرارا به الجمع في موضعين ، الموضع الأول في

سورة النساء : « ولما جاءكم المؤمنات مهاجرات فمقتضاهن ما جاءكم منهن مما كنتم تنهون أنفسكم » .

يقوله تعالى: « ليس على الأعمى عرج »، إلى قوله تعالى أو هل لكم بمفاتحه أو صديقكم » إذ المراد أو بيوت أصدقاؤكم فوضع الواحد موضع الجمع ، والموضع الثاني في قوله تعالى: « فما لنا من شافعين ولا صديق حميم » أي فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نمدحهم شفعا وأصدقاء لأنهم كانوا يمتدحون في أصدانهم أنهم شفعاؤهم عند الله ، وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس أو أرادوا أنهم وقعوا في مهلكة علموا أن الشفعا والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم فقصدوا بنفيهم ما يتعلق بهم من النفع لأن عمالا ينفع حكمه حكم الممدوم .

والحليم من الاحتمام وهو الاحتمام وهو الذي يهيم ما يهلك أو من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخاص .

وبين الزمخشري السر في جمع الشافع « أفراد الصديق فقال : ثم قل : لم جمع الشافع ووجد الصديق ؟ قلت : لكثرة الشفعا في العمادة وقلة الصديق ، ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بارهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته رحمة الله وحسبه وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة ، وأما الصديق وهو الصادق في وداك الذي يهيم أما أنك فأعز من بيض الأنوق ، وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال : اسم لا معنى له .

وقد ضرب المثل بعزة بيض الأنوق وهو طائر الرخمة فقيل : أمز عن بيض الأنوق ، لأنها تحرزه فلا يظفر به لأن أوكارها في رؤوس الجبال والأماكن الصعبة ، وفي عزة الصديق الصادق قال الشاعر :  
حصاد الصديق وكاف الكفاة مما لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعة

ويقول الشافعي رضي الله عنه :

ما في زمانك من ترجو موته  
ولا حديق إذا جار الزمان وفي

فممش فريدا ولا تترك اني أحد  
ها قد نصحتك ليما قلته وكفى

وقد وقعت لفظة عدو موقع الجمع في آيات كثيرة في القرآن منها  
قوله تعالى : « فأنهم عدو لى إلا رب العالمين » •

وقوله تعالى : « أفنتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم  
عدو » الكهف : ٥٥ •

وقوله تعالى : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين »  
الزخرف : ٦٧ •

وقوله تعالى « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين » وفي  
قوله تعالى : « ترهبون به عدو الله وعدوكم » الأنفال : ٦٥ •

وقوله تعالى : « وقتلنا أهبوطا بعضكم لبعض عدو » أى أهبوطا  
متعادين يقول السمين : وأفرد لفظ عدو وإن كان المراد به جمعا لأحد  
وتجهين : أما باعتبار لفظ بعض فإنه مفرد وإما لأن عدوا أشبه المصادر  
في الوزن كالقبول فلذلك لم يجمع ، والعدو والصديق يجيئان في معنى  
الوحدة والجماعة قال الشاعر :

وقوم على ذوى مؤرة أراهم عدوا وكنوا صديقا

ومن وضع الواحد موضع الجمع ما نجده في قراءة من قرأ مخلقتنا

المضغة عظاما فكسونا العظم لحما ، وقد بين الزمخشري العظم على هذه القراءة وقع موقع العظام وبين أنسر هي ذلك وهو أمن اللبس لأن الإنسان ذو عظام كثيرة . وفي الآية قراءة أخرى وهي :

« فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لتعيا . » فمن قدم الأفراد نظر إلى اللفظ الذي هو انسان وسلافة ونطفة ثم عقب بالجماعة لأنها هي الغرض وهذه القراءة تجري على قوانين النحاة من اجراء الكلام على اللفظ أولا ثم المعنى ثانيا كما تقول : من قام وقعدوا اخوتك ، وان كان يجوز العكس من قاموا وقعد اخوتك الا أنه غير فصيح ، لأنني اذا أتيت بالمعنى أولا فجهمت أكون قد انصرفت عن اللفظ ، وراجعة اللفظ بعد الانصراف عنه تراجع وانعكس .

ومن وضع الواحد موضع الجمع كلمة زوج في قوله تعالى : « وان أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » المراد بالزوج هنا الجمع أي أن الواحد قد وقع موقع الجمع بدلالة قوله تعالى : « وان أردتم » فالخطاب لجماعة المكلفين أي وان أردتم استبدال أزواج مكان أزواج لمقابلة الجمع بالجمع .

والنكتة في ذلك أي في وضع الواحد موضع الجمع هو : صحة العمل أي جعل إرادة الجمع من الواحد مع وضوح المعنى إذ لا يتوهم اشتراك المخاطبين في زوج واحد مكان زوج واحد ولإرادة معنى الجمع عاد الضمير من قوله : « إحداهن » على « زوج » جمعا ، وقال : « إحداهن » ليول على أن قوله « وآتيتم » المراد منه « وآتي كل واحد منكم إحداهن أي إحدى الأزواج ، ولم يقل : آتيتموهن قنطارا لئلا يتوهم أن الجميع المخاطبين آتوا الأزواج قنطارا .

والمراد آتى كل واحد زوجة قنطاراً ، فدل لفظ احداً على أن  
الضمير في « آتيتم » المراد منه كل واحد واحد ، كما دل لفظ « وان  
أردتم استبدال زوج مكان زوج على أن المراد استبدال أزواج مكان  
أزواج ، فأريد بالمفرد هنا الجمع لدلالة « وان أردتم » ، وأريد بقوله  
« وآتيتم » كل واحد واحد لدلالة « احداً » وهي مفردة على ذلك .

ولا يدل على هذا المعنى البليغ بأوجز ولا أنصح من هذا

التركيب (٣) .

وهن وضع الواحد موضع الجمع قوله تعالى : « انما وليكم الله  
ورسوله والذين آمنوا » المسألة : هه فقد وضع لفظ الولي موضع  
« أولياء » لأن المذكور جمع وهم الله عز وجل - ورسوله والمؤمنون ،  
فلو جاء على مقتضى الظاهر لقال « انما أولياؤكم » ولكنه عدل عن  
الجمع الى المفرد لنكتة بلاغية وهي أن الولاية الحق انما هي لله وحده  
أصالة وهي ارسوله والمؤمنين تبعاً .

يقول الزمخشري : قد ذكرت جماعة شهلاً قبيلاً : انما أولياؤكم  
وأجاب بأن الولاية بطريق الأصالة لله تعالى ، ثم نظم في سلك استنباطها  
رسوله والمؤمنين ، على سبيل التبع ، ولو جئ به جمعاً قبيلاً : انما  
أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا ، لم يكن في الكلام أصل وشع (٤) .

وقيل : ان « ولي » بزنة فاعيل ، وقد نص عليه أهل اللسان أنه  
يقع للواحد والاثنتين والجمع تفكيراً وتأنيلاً بافظ واحد قال تعالى :  
« والملائكة بعد ذلك ظهروا » (٥) .

(٣) ينظر الدر المنون ٦٢٢/٣ ، ٦٢٣ .

(٤) الكشاف ٦٢٢/١ .

(٥) ينظر الدر المنون ٦٢٢/١ .

(٦) الكشاف ٦٢٢/١ .



وقد اعترض الألويسي على هذا الوجه قائلاً : انه غير واسع موقعه ، لأن الكلام في سر بياني وهو نكتة المدول من لفظ الى لفظ ، ولا يرد على ما تقدمنا أنه لو كان التقدير كذلك لنا في حصر الولاية في الله تعالى ثم اثباتها للرسول ﷺ والمؤمنين ، لأن الحصر باعتبار أنه سبحانه الولي أصالة وحقيقة ، وولاية غيره إنما هي بالاسناد اليه عز شأنه (٦) .

ويمكن أن يقال : التقدير : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » أولياؤكم فحذف الخبر لدلالة السابق عليه ، وفائدة الفصل في الخبر هي التنبيه على أن كونهم أولياء بعد كونه سبحانه ولياً على جهة الاختصاص بانما أى اختصاص الولاية بالله تعالى وحده فهو وحده الحقيق بالموالات ، وهو الالة رسوله والمؤمنين تابعة للولاية لله وحده لأنه سبحانه هو الذي يجعلهم أولياء .

وقد يخبر بالمفرد عن الجمع لا سيما إذا كان المفرد مصدراً كما في قوله تعالى : « انكم اذا مثلهم » فلو طابق الخبر المبتدأ « اسم ان » لقال « أمثالهم » ولكنه أفرد لأنه في الأصل مصدر فيستوى فيه الواحد المذكور وغيره ، وقيل : لأنه كالمصدر في الوقوع على القليل والكثير أو لأنه مضاف الى جمع غييم وقد طابق ما قبله في قوله تعالى : « ثم لا يكونوا أمثالكم » (٧) .

وقوله تعالى : « وحوور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون » فحيث قصد المصدر كما في هذه الآية أفرد ، وحيث قصد العدد جمع وعلى هذا يكون تقدير المعنى : ان عصيانكم مثل عصيانهم .

(٦) روح المعاني ١٦٦/٦ .

(٧) روح المعاني ١٧٣/٥ .

وقد يؤثر الأفراد على الجمع عند أن التثنية إذا كان العرض بيان الجنس دون العدد والواحد يدل عليه كما في قوله تعالى: «فان طين لجمع عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا» فالعرض هنا ليس ببيان العدد حتى يجمع ليكون مطابقا لما قبله، وإنما العرض هنا هو بيان الجنس ولا يحصل ليس لعدم مطابقته لما قبله إذ أن ما قبله جموع لأنه من المعنوم أن الكل من مشتركات في نفس واحدة ومثله «قر الذين عينا» ويجوز أعينا، وحسن الأفراد هنا ما تقدم من محسن تذكر الضدير وإفرادة في «منه» وهو أن المعنى: فان طابت كل واحدة نفسيًا.

وقيل: إنما أفرد «نفسا» لأن المراد بها هنا: الهوى، والهوى مصدر. والمصادر لا تثني ولا تجمع.

ويقول الشيخ الطاهر بن عاشور: «وجيء بلفظ «نفسا» مفردا مع أنه تمييز نسبة «طين» إلى ضمير جماعة النباء لأن التمييز اسم جنس مذكور يستوي فيه المفرد والجمع، وأسنده الطيب إلى ذوات النباء ابتداء ثم جيء بالتمييز للدلالة على قوة هذا الطيب على ما هو مقرر في علم المعاني من الفرق بين «اشتعل الرأس شيئا» وبين اشتعل شيب رأسه ليعلم أنه طيب نفس لا يشوبه شيء من الضغطة والالقاء (٨).

ومن وضع الواحد موضع الجمع لكونه مفسدًا ما جاء في قوله تعالى: «وعرضوا على ربك مصفا» أي مصطفين أو خفوفًا أي أنها في معنى الجمع لأنها مصدر.

ومن وقوع الواحد موقع الجمع ما جاء على زنة فعل وهو لفظ

(٨) التحرير والتنوير ٢٣٢/٤ ٨٠ (٨) (٧ - البهجة)

« رقيق » في قوله تعالى : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » أى صاحبها وهو مشتق من الرفق وهو لين الجانب والطفة في المعاشرة قولاً وفعلًا ، وأوثر الأفراد هنا لأنه على زنة جميل وهو مما يستوى فيه المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث ، كالخليفة والصديق ، أو أنه من باب الاكتفاء بالواحد عن الجمع في باب التمييز لفهم المعنى ، وحسن الأفراد هنا لمجيئته في الفاصلة وهي مما تحصن في النظم بل أن اللفظة الواقعة فيها قد تغير لأجل استقامة الفواصل كما في قوله تعالى : « والنيل إذا يسر » فقد حذفت الياء في « يسرى » لأجل استقامة الفواصل ، ولا يخلو النظم من إيجاد نكتة معنوية أيضا .

وهي أن أثار الأفراد هنا لإرادة استقلال كل واحد بالحسن مما ذكر في قوله تعالى : « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » أى حسن كل واحد منهم وأن الرفقة مع واحد منهم فقط ما أحسنها فكيف بها مع كل هؤلاء لاشك أنها غاية في الحسن ولذلك كان التركيب يحمل معنى المدح والتعجب كأنه قيل : وما أحسن أولئك رفيقا .

وقيل : قد يكون القصد من الأفراد هو بيان الجنس مع قطع النظر عن الأنواع ، وقد روعي لفظ « من » في قوله تعالى : « ومن يطع الله والرسول » فأفرد في قوله : « رقيقا » وروى معناها فجمع في قوله : « أولئك » إلا أن البداية في ذلك بالحمل على اللفظ أحسن ، وعلى هذا فيكون قد جمع فيها بين الحمل على اللفظ في « يطع » ثم على المعنى في « أولئك » ثم على اللفظ ثانيا في « رقيقا » (٩) .

ومن وضع الواحد موضع الجمع ما جاء في قوله تعالى :  
« والملائكة بعد ذلك ظهير » فالملائكة مبتدأ و « ظهير » خبره ، وقد  
أخبر بالمفرد عن الجمع لأنه في معناه فما كان على رتبة فعل يستوي  
فيه الأفراد والتثنية والجمع كما سبق في « رفيقا » ، ولعل في إتيان  
الأفراد هنا ليكون الظهراء وهم الملائكة قد تعاضدوا وتساندوا في  
مؤازرة النبي ﷺ ، وليكونوا عوناً له كالبنين المتمايك الذي يشد  
بعضه بعضاً .

ويبدو أن حدث التظاهر كان عميقاً في نفس رسول الله - ﷺ ،  
وكان ذا تأثير شديد في قلب رسول الله حتى احتاج الأمر إلى إعلان  
موالاة الله وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير « ليطيب  
خاطر الرسول - ﷺ - ويحسن بالطمأنينة والراحة من ذلك الأمر  
الخطير (١٠) .

وفي قوله تعالى : « ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله »  
المراد بالكلمة : عيسى - عليه السلام - وإنما سمي عيسى - عليه  
السلام - بذلك لأنه وجد بكلمة « كن » من دون توسط سبب عادي  
وهكى عن أبي عبيدة : أن معنى « بكلمة من الله » بكتاب منه والمراد به  
الإنجيل ، وأطلق الكلمة عليه كإطلاقها على القصيدة في قولهم : كلمة  
الحويدرة للعينية المعروفة بالبلاغة ، فعبر عن الجمع ببعضه ، ومثل هذا  
أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة  
عليه » :

لا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة  
مساواة » فالكلمة مقصورة بقا بعدد ما من قوله تعالى : « لا تعبدوا إلا الله  
ولا تشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً » من دون الله » ( آل  
 عمران : ٦٤ ) فالمراد بالكلمة هذه الجملة الثلاث ، وهذا من باب إطلاق  
الجزء والمراد به الكل ، ومنه تنجيه القاصدة جمعاً قافية ، والناحية  
جزءاً منها قال :

أعلمه الرماية كل يوم      فلما استد ساعده رمانى  
وحكم علمته نظم القوافى      فلما قال قافية هجانى

ويقولون كلمة لا الشهادة ، ويعنون بها : « لا إله إلا الله »  
وسموا الله « وهذا كما يسمون الشيء بجزئه في الأعيان لأجله المقصود  
منه فقالوا لربية القوم ، وهو الذى ينظر لهم ما يحتاجون إليه : « يق  
فأطلقوا عليه عينا . أو ان هذا من وضع المفرد موضع الجمع كما قال  
بعضهم :

بما جينه الصرى فلما عظامها      فبيض وأما جلدها فصليبها

وقيل : أملت الكلمة على الكلمات لارتباط بعضها ببعض فصارت  
في قوة الكلمة الواحدة إذا اختل جزء منها اختلت الكلمة ، لأن كلمة  
انتزجيد لا إله إلا الله هي كلمات لا تتم النسبة المقصودة فيها « من حصو  
الأكبرية لى الله إلا بمجموعها ( ١١ ) .

ومن وضع الواحد موضع الجمع كلمة « إلهما » في قوله تعالى :  
« والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا

الملتزمين اماماً » (الفرقان : ٧٤) أى أئمة يقتدى بنا فى الخير ، واجعلنا  
هداة مهتدين دعاة إلى الخير ، فذهبوا أن تكون عبادتهم متصلة بمعاينة  
أولادهم وذرياتهم ، وأن يكون هدايتهم متعدية إلى غيرهم بالنفع ، وذلك  
أكثر ثواباً وأحسن مأباً (١٢) .

وفى تأويل المفرد « اماماً » بالجمع « أئمة » وردت أقوال متعددة :  
منها : أنه قال « اماماً » ولم يقل « أئمة » بالجمع ، لأن الإمام مصدر  
يقال : أم القوم فلان اماماً مثل الصيام والقيام ، أو أراد أئمة كما  
يقول القائل : اميرنا هؤلاء معنى امرأنا وقال الشاعر :

يا عاذلاتى لا تتردن ملامتى ان العواذل لسن لى بامير

أى أمراء . وقيل : عدل عن الجمع وعبر عنه بالواحد لدلالته على  
الجنس ولعدم اللبس بكقوله تعالى : « ثم يخرجكم طفلاً » (الحج : ٥)

وقيل : عدل عن الجمع بذكر الواحد لاستقلال كل واحد منهم  
بجعل اماماً للمؤمنين أى واجعل كل واحد منا اماماً ، أو أراد بذكر المفرد  
اتفاق الكلمة واتحاد الأئمة فى الراى والمشورة والإحكام وعدم اختلافهم  
اختلافاً يئدى إلى تفريق الأمة وتمزيق أوصالها ، لأن دم الوحدة واتفاق  
الكلمة يؤدى إلى تقسيم الأمة إلى فرق متباينة متناحرة مما يعود بضرره  
على المجتمع الاسلامى .

وقيل : ان سر المدول عن الجمع إلى المفرد هو رعاية الفواصل  
وهو ختم الآيات بالميم المفتوحة المسبوقة بآلف المد فلو قيل : « أئمة »  
لضاع الانسجام الصوتى الناتج عن مراعاة الفاصلة القرآنية .

~~.....~~  
(١٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٧٠ . ن . ق . ع . « اماماً » جمع امام

ولا يمنع أن يكون سر المدح لهذا الغرض اللفظي ولغيره من الأغراض المعنوية التي ذكرناها حيث لا تعارض بينها •

ومن وضع الواحد موضع الجمع كلمة « ضدا » في قوله تعالى : « كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا » أى أعوانا فى خصومتهم وتكذيبهم ، ووحد « ضدا » وإن كان يراد منه الجمع لأنه خبر عن جمع ، لأحد وجهين إما لأنه مصدر فى الأصل ، والمصادر موحدة مذكرة ، وإما لأنه مفرد فى معنى الجمع •

وسر إثارة المفرد على الجمع هو أن تتفق كلمة المعبودين ليكونوا ضد من عبدهم من دون الله فيعتبروا دنهم ، فيكونون رغم كثرتهم كالشيء الواحد لفرط تضامهم وتعاونهم وتوافقهم ، وهم بهذا كاليد الواحدة على هؤلاء الكفار الذين عبدهم من دون الله كما قال ﷺ فى الحديث النبوى الشريف « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسمى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » ومعنى تتكافأ دماؤهم أنهم متساوون فى القصاص والديات ، والكفوؤ النظار والمساوون ، وهم يد على من سواهم أى هم مجتمعون على أعدائهم متعاونون على جميع أهل الأديان كأنه جعل أيديهم يدا واحدة وقلمهم واحدا •

فالرسول عليه الصلاة والسلام يقرر بهذا الحديث مبدأ المساواة بين جماعة المسلمين فكما أنهم متساوون فى الدماء وفى الزمة هم أيضا متساوون فى التعاون والنصرة والوقوف صفا واحدا ويذا واحدة فى وجه الباطل والطغيان كل واحد منهم فى إطار الجماعة كالأصبع فى اليد ، والجماعة كلها كاليد ذات الأصابع المتعاونة ، فكما لا نخذل الأصابع بعضها لا يجوز عليهم أن يتخاذلوا ، وعلى هذا يكون قوله عليه السلام : « وهم يد على من سواهم من قبيل التشبيه باليد الذى تحقق فيه أداته » • والآية من الطباق المتدور لأن المعنى أنهم طليقوا

الحرّة محصل لهم ضحعا وهو الذي ليفصل التقابل بين معنى هذه الآية وبين ما قبلها وهي قوله تعالى : « واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا » ووجد أيضا لنا متبقي تفريره في « ضحا » .

ومن وضع الواحد موضع الجمع قول الله تبارك وتعالى : « والملك على أرجائها » . الحاقة : ١٧ فالمراد من الملك في الآية : الملائكة والدليل على أن الملك المراد منه الملائكة قوله تعالى : « على أرجائها » والأرجاء في اللغة : النواحي يقال : رجا ورجوان والجمع : الأرجاء ، ويقال ذلك لحرف البئر والقبر وما أشبه ذلك ، لكن الواحد بما هو واحد لا يمكن أن يكون على أرجائها في وقت واحد .

يقول الرازي : لم يرد به ملكا واحدا بل أراد الجنس والجمع (١٣) .

ويبين الزمخشري السر في إثبات الأفراد على الجمع في هذه السياق فيقول : فان قلت : ما الفرق بين قوله : والملك وبين أن يقال : والملائكة ؟ قلت : الملك أعم من الملائكة ألا ترى أن قولك : ما من ملك إلا وهو شاهد أعم من قولك ما من ملائكة ؟ أم .

وقد اعترض أبو حيان على الزمخشري في إعادة العموم من الأفراد قائلا ولا يظهر أن الملك أعم من الملائكة ، لأن الفرد المحلى بالأنف واللام قصاره أن يكون مراداً به الجمع المحلى بهما .

وأما دعواه أنه أعم منه بقوله : ألا ترى . . التي آخره فليس دليلا على دعواه ، لأن من ملك نكرة مفردة في سياق النفي قد دخلت عليها « من » المخلصة للاستفراق ، فشملت كل ملك فاندرج تحتها الجمع

والفرد المحلى بالأنف

والفرد المحلى بالأنف



لوجود الفرد فيه فأنتمى كل فرد فرد بخلاف « من ملائكة » فإن « من » دخلت على جمع منكر فعم في كل جمع جمع من الملائكة ولا يلزم من ذلك انتفاء كل فرد من الملائكة ، لو قلت : « ما هي الدار رجال » جاز أن يكون فيها واحد لأن النفي انما انسحب على جمع ولا يلزم من انتفاء الجمع انتفاء الفرد ، والملك في الآية ليس في سياق نفى دخلت عليه « من » وانما جيء مفردا (١٤) .

وعلى هذا لا يثبت للزمخشري ما قاله في سر ايثار المفرد على الجمع ويبقى السر في ما ذكرناه . هو ما ذهب اليه الرازي وهو ارادة الجنس كله بدليل قوله تعالى « على أرجائها » ، ولأن المفرد أخف من انجمع ، والمعنى أن السماء اذا انشقت عدلت الملائكة عن مواضع انشق الى جوانب السماء وفي قوله تعالى : « لا يقاتلونكم جميعا الا في قري محصنة أو من وراء جدر » قرأ ابن كثير وأبو عمرو « جدار » بالأفراد فما توجيها ؟

قيل : أراد بالجدار السور الممتد والسور الواحد يعم الجمع من المقاتلة ويستترهم .

وتقيل : أنه واحد في معنى الجمع لدلالة السياق عليه ، وقيل : أن كل فرقة منهم وراء جدار لا أنهم كلهم وراء جدار (١٥) ، والجمع « جدر » باعتبار أن لكل فرقة جدار يستترها وتحتفي فيه فجمع لذلك .

ومن وضع الواحد موضع الجمع في قوله تعالى : « وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام » (١٦) ففي قوله تعالى : « جسدا » وضع

(١٤) البحر المحيط .

(١٥) الدر المنثور ٢٩٨/٦ .

(١٦) الانبياء : ٩ .

المفرد موضع الجمع ، لأن المراد أجساد ، فالكلام على حذف مضافه والتقدير : وما جعلناهم ذوى أجساد غير آكلين الطعام ، وقيل : وحده الجسد لإرادة الجنس كأنه قال : ذوى ضرب من الأجساد ، وهذا رد لقولهم : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق (١٧) •

وقيل السر فى أفراد الجسد هو إرادة : وما جعلنا كل واحد منهم جسدا والقراءات القرآنية أسهت فى إثراء الدرس البلاغى لما يتضح من توجيهها من الكشف عن أسرار بلاغية فى قوله تعالى : «ردوها على فطقت مسحا بالسوق والأتان» (١٨) قرأ زيد بن على « بالساق » مفردا إكتفاء بالمفرد عن الجمع لعدم الالipsis كقول الشاعر :

• وأما جلدتها فصليب •

وقوله :

• تكلوا فى بعض بطونكم تعفوا •

ومن وقوع المفرد موقع الجمع لفظة « الدبر » فى قوله تعالى : « سيعزىم الجمع ويولون الدبر » فالدبر هنا أيم جنس فى معنى الجمع أى أنه واقع موقع الجمع والسر البلاغى فى اختيار المفرد على الجمع هنا هو وقوعه فاصلة لأن الفواصل فى السورة كلها على حصره البراء غير مسبوق بمد •

قال تعالى : « عذابى ونذر » « مذكر » « ولقد جاء آل فرعون بالنذر » « عزيز مقتدر » « الخ » •

(١٧) الكشف ٥٦٤/٣ •

(١٨) من : ٤٣ •

والإقلام أيضا يقتضى افراد الدبر ، لأن القوم قد ادعوا القسوة  
 العلامة بحيث يطلب كل واحد منهم محمدا ﷺ ، والله تعالى أراد أن يبين  
 خيلهم الظاهر الذى يجمعهم جميعا بقوله : « ويولون الدبر » فيكون  
 فى الافراد اشارة الى أنهم فى التولية كنفس واحدة فلا يتخلف أحده  
 عن الجمع فى تولية الدبر ويثبت للزحف فهم كانوا فى التولية كدبر  
 واحد .

أما الآيات التى ورد فيها لفظ الدبر مجموعا وهى كثيرة منها : قوله  
 تعالى : « يولوكم الأديار ثم لا يفصرون » آل عمران : ١١١ .  
 وقوله تعالى : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأديار »  
 الأحزاب : ١٥ .

وقوله تعالى : « فلا تزلوهم الأديار » الأنفال : ١٥ .

فك واحد منهم ينبغي أن يثبت ولا يولى .

ومن وضع الواحد موضع الجمع قوله تعالى : « من لباس لكم وأنتم  
 لباس لهن » حيث أخبر عن الجمع بالمفرد لأنه أى المفرد يجرى مجرى  
 المصدر فهو على زنة فعل من مصادر فاعل أى لابس وأويله : من  
 ملابسات لكم وأنتم ملابسون لهن .

ولعل فى اثار المصدر دون اسم الفاعل سرا بلاغيا وهو ادلالة  
 على شدة الاتصال النفسى بين الزوجين وشدة المخالطة بينهما إذ فى  
 الاخبار بالمصدر عن الاسم مفردا أو مجموعا من المبالغة ما ليس فى  
 غيره نحو رجل عدل ، ورجال عدل . ولذلك قالوا : كنى باللباس عن  
 شدة المخالطة كقول النابغة الجعدي :

إذا ما الضجيع ثنى جيدها      تثنت عليه فكانت لباسها

وفى قوله : « من لباس لكم » تشبيه بليغ يحذف الوجه والأداة وعلى الرغم من ظهور ذلك فإن صاحب التفسير والتنوير يرى فيها استعارة بجامع شدة الاتصال حينئذ ، أو لعله نظر إلى كلمة « لباس » فقط فأجرى فيها الاستعارة لكن عبارته توهم إرادة الجملة كلها حيث قال : فقولته تعالى : « من لباس لكم » استعارة بجامع شدة الاتصال فلم يحدد اللفظ الذى تجرى فيه الاستعارة .

#### ثانياً - وضع التجمع موضع الواحد :

فى قوله تعالى : « كذبت قوم نوح المرسلين » وقع التجمع فى قوله : « المرسلين » موقع الواحد ، لأن قوم نوح كذبوه فقط ، ومن ثم قال الزمخشري : المراد من المرسلين نوح عليه السلام على منوال قولك : فلان يركب الدواب ، ويلبس البرود ، وما له إلا دابة ويرد (١٩) . ورد ابن المنير ما قاله الزمخشري مبيناً أنه لا حاجة إلى تأويل الجمع بالواحد مع القطع بأن كل من كذب رسولا واحداً ، فمقد كذب جميع الرسل ، لأنه ما من نبي إلا ومستند صدقه المعجزة الدالة على الصدق ، فمقد كذبوا كل من استند صدقه إلى دليل المعجزة « (٢٠) » .

أى أنه لما كانت المعجزة مستند صدق كل الرسل ، وهذا يشترك بين الجميع فمن كذب واحداً فمقد كذب الجميع لاشتراكهم جميعاً فى دلالة معجزاتهم على المصدق .  
أو قد يكون المعنى أنكروا أن يكون الله قد أرسل رسلاً أصلاً ومن بينهم نوح عليه السلام فيكونون مكذبين لكل الرسل ، وعلى هذا يكون

(١٩) الكشف ١٧٠/٣ . ١٧٥٧/٢ . راجع إلى تفسيره (١٧٦)

(٢٠) حاشية ابن المنير : الموضع السابق ٧٩ : قوله تعالى (٢٦)

الجمع على ظاهره في الدلالة على تكذيب المرسلين • وقيل : كذبوا نوحا  
في النبوة وفيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده •

وقيل ذكر الجنس والمراد نوح عليه السلام « (٢١) » وقد  
سبق في الفرقان أيضا تكذيب قوم نوح للرسول في قوله تعالى : «وقوم  
نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية » (٢٢) •

وقد ذكر الزمخشري عند تفسير هذه الآية أن الجمع قد يكون على  
حقيقته فقال : كأنهم كذبوا نوحا ومن قبله من الرسل مريحا ، أو كان  
تكذيبهم لواحد منهم تكذيب للجميع ، وهذا المعنى هو الأنسب للمقام  
لأن الله لم يرسل لهم من الرسل سوى نوح عليه السلام ، ولكن لما  
جاءهم بالمعجزة الواحدة التي أرسل بها الرسل جميعا وكذبوه فكونوا  
قد كذبوا الرسل جميعا ، وهذا هو سر وضع الجمع موضع الفرد ،  
ولو غرض أن الله تعالى بعث إليهم كل رسول ، فأنهم كانوا يكذبون •

ومن وضع الجمع موضع الواحد قوله تعالى : « فنادته الملائكة  
وهو قائم يصلي في المحراب » فقد روي أن زكريا — عليه السلام —  
كان يقرأ فناداه جبريل ، فقيل : الجمع هنا مجاز عن الواحد لتعظيم  
أو يكون هذا من اسناد فعل البعض للكل ، وقيل الجمع فيه مؤنثه في  
قولك : « فلان يركب الخيل » أي جنس الخيل ، إنما يركب واحدا من  
أفرادها ، والمراد بالخيل : الكثير ولا يستعمل الخيل والابل ونحوهما  
إلا في الكثير فأنها من أسماء الجموع ، وكما يقال : فلان يأكل الأظعمة،  
الاطمية ، ويلبس الثياب النفيسة ، أي يأكل من هذا الجنس ويلبس من

(٢١) تفسير القرطبي ٤٨٣٥/٧ • ٦٧٠/٢١ • مناقشة (٢١)

(٢٢) الفرقان : ٣٧ • المنايا : ٢١ • هذا قوله (٢٢)

هذا الجنس مع أن المعلوم أنه لا يأكل جميع الأطعمة ، ولا يلبس جميع الثياب ، وكما يقال : فلان يركب في السفن أى على هذا الجنس ، فإنه لا يركب إلا في سفينة واحدة •

ونقل الفخر الرازي عن المفضل بن سلمة قوله : « إذا كان القائل رئيسا جاز الاخبار عنه بالجمع لاجتماع اصحابه معه ، فلما كان جبريل رئيس الملائكة ، وقتل يبعث الا رفقة جمع صح ذلك (٢٣) •

ويرى الماهر ابن عثور أن اسناد النداء الى الملائكة من قبيل اسناد فعل الواحد الى قبيلته ، كقولهم : قتلت بكر كذا وأنتا الذي قتله واحد من أفراد القبيلة (٢٤) •

وعلى أى من هذه المعانى التى أشرنا اليها فان اسناد النداء الى الملائكة بالجمع فيه من التشريف والتعظيم ما ليس فى المفرد كما يقول الواحد إذا أراد أن يقخم نفسه فعلمنا كذا ، أو أمرنا بكذا ••

ومنه قوله تعالى : « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » فالمراد من « الناس » الأولى هو نعيم بن مسعود ، والمراد من « الناس » الثانية هو أبو سفيان ، وإنما جاز اتصال لفظة الناس على الواحد لأنه إذا قال واحد قولاً وله أتباع يقولون بمثل قوله ، حسن اضافة ذلك الفعل الى الكل (٢٥) لأن قول الاتباع لا يخرج عن قول رئيسهم أو سيدهم ، وكان كل من أبى سفيان ونعيم بن مسعود دواعين فى قلوبهما لما لهما من منزلة عظيمة فى نفوس القوم •

(٢٣) التفسير الكبير ١٩٥/٧ •

(٢٤) التحرير والتنوير ٢٣٩/٢ •

ومن وضع الجمع موضع المفرد لفظة « الناس » أيضا في قوله تعالى : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » فالمراد من الناس هو النبي ﷺ ، ينكر عليهم المولى عز وجل حسدهم لرسول الله ﷺ والانتكار ليس مفيدا تنفي الحسد لأنه واقع وإنما كان ينبغي ألا يقع منهم فهو مفيد للتوبيخ ، ولاشك أن السر في وضع الجمع هنا موضع الواحد هو ارادة التعظيم أو ليكون الحكم عاما فان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . فالانتكار هنا موجه الى كل حاسد ينظر الى من آتاهم الله من فضله نظرة تحمل دفاثن الحقد بتمنى زوال النعمة عن المنعم عليهم .

ومنه قوله تعالى : « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله » يعنى المسجد الحرام - لقوله تعالى : « وعمار المسجد الحرام » كما أن فيه توطئة لقوله : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربون المسجد الحرام بعد عامهم هذا » إذ هم ليسوا بأهل لأن يعمروا المسجد الحرام وغيره من مساجد الله لظهور كفرهم المتمثل في أقوالهم وأفعالهم مثل قولهم في التلبية « لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك » ومثل سجودهم للأصنام وطوافهم بها ، ووضعهم إياها في جوف الكعبة وحملها وعلى سطحها ، فهذه الأقوال والأفعال شاهدة على أنفسهم بالكفر .

وقرىء مساجد الله بالجمع وقرأ ابن كثير ويعقوب وأبو عمرو « مسجد الله » بالافراد ، وهذه القراءة تؤيد المراد من الجمع وهو الافراد أى المسجد الحرام في قراءة الباقيين بالجمع ، وذلك لتوافق القراءتين وتطابقهما .

ويقول الزمخشري وأما القراءة بالجمع ففيها وجهان :

أحدهما : أن يراد المسجد الحرام ، وإنما قيل « مساجد » لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها ، فعلمه كما مر جميع المساجد ، ولأن كل بقعة منه مسجد .

والثاني : أن يراد جنس المساجد ، وإذا لم يملحوا لأن يعمروا جنسها دخل تحت ذلك أن لا يعمروا المسجد الحرام الذي هو صخر الجنس ومقدمته .

وهو أكد ، لأن طريقته طريقة الكناية ، كما لو قلت : فلان لا يقرأ كتب الله كنت أنفي لقراءته القرآن من تصريحك بذلك « (٢٦) » .

ونقول : إن قراءة الجمع على الوجه الأول وهو أن يراد من « مساجد الله » : المسجد الحرام فيها مبالغة وتنويه وتعظيم لشأن المسجد الحرام فهو أعظم مساجد الله منزلة وأعلاما قديرا وهو أول المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال ، والصلاة فيه بمائة ألف صلاة على الأجر والثواب فعبّر عن هذا الشيء المعنوي الذي يتسم بالمعظمة والروعة بالجمع العددي ، وكان المسجد الحرام مساجد متعددة ، ليس مسجدا واحدا لقيمة شأنه ورفعة مكانه .

ومن وضع الجمع موضح الواحد أيضا ما ذكره المفسرون في تفسير قوله تعالى : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » فقد أكثر النظم الكريم طريق الجمع في رسل الملائكة وعدل به عن الأفراد لأن المشهور أن رسول الوحي واحد وهو جبريل عليه السلام لقصد تعظيمه حتى لكأنه عليه السلام بامتياز به تلك الخصيصة صار أهلا



لأن يوصف بما يوصف به الجماعة ، أو لأن ما يقوم به من مهام الرسالة يعجز عن حملها جمع كثير من الناس .

وقد ذهب العلامة الألوسي إلى أن التجمع هي رسل الملائكة على ظاهره إذ المراد الله يصفني من الملائكة رسلا التي سخرهم على تبليغ ما كلفوا به من الطاعات ، ومن الناس رسلا إلى سائرهم في تبليغ ما كلفهم به أيضا ، وعلى أية حال غانا لا نستطيع ترجيح رأي على آخر في المراد من جمع رسل الملائكة لأن هذا امر متصل بعلم الغيب الذي استأثر الله بعلمه .

ولا يجوز لنا أن نضمن في التأويل في هذا الجانب الغيبي الذي يعلمه الله وحده وهو سبحانه أعلم حيث يحمل رسالاته ، لا سيما وقد ورد هذا الجمع في جانب الملائكة في آيات كثيرة .

منها قوله تعالى : « الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا » ، وقوله تعالى : « حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » وقوله تعالى : « حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم » ، وقوله تعالى : « أن رسلنا يكتبون ما تمكرون » ، وقوله : « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما » وقوله تعالى : « ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم ، وضاق بهم ذرعا » وقوله تعالى : « ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى » وقوله : « بلى رسلنا لديهم يكتبون » .

هذه الآيات الكثيرة تجعلنا أكثر إيمانا بعدم الخوض في تأويل رسل الملائكة بالمفرد وهو جبريل فمن المعلوم أن جبريل هو أمين الوحي وهو العلم عليه لكن هذا لا يمنع أن يكون له أعوان من رسل الملائكة ، كما أن عزرائيل هو ملك الموت وله أعوان من رسل الملائكة بنص القرآن ، وذلك الحسنات ~~وهذه~~ ~~التي~~ ~~أعوان~~ من

الرسل ، وقد ورد ذلك صريحا بنص القرآن . وكذلك ملك المذابح  
وخزنة جهنم .

ومن وقوع الجمع موقع الواحد قوله تعالى :

« يا أيها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » ، ولعل السبب  
البلاغي في توجيه الخطاب الى النبي ﷺ بلفظ الجمع « ملقتم » مع  
أن انحكم خاص بالمسلمين لا بشخصه — ﷺ — هو زيادة في الاهتمام  
وأشعارا بخطورة الأمر المتحدث عنه فهو أمر ذو بال يتنادى الله نبيه  
بشخصه ليلقى اليه فيه بأمره على هذا النسق الذي ينتقل فيه الخطاب  
من المفرد الى الجمع ، وفيه أيضا إيحاء للمؤمنين بأنهم يجب عليهم أن  
يأتسروا برسول الله ﷺ في أحكام الطلاق لأن ما يقوله ﷺ إنما هو  
وحى بهي فهو لا ينطق عن الهوى فينفذوا ما جاء عنه ﷺ قولاً وفعلًا  
وتقريباً .

وقد هديت الى ذلك بما ذكره المرحوم الشهيد سيد قطب عند  
تفسير قوله تعالى في تفسير السورة « قد أنزل الله عليكم ذكرا رسولا  
ينظر عليكم آيات الله مبينات .. الآية : ١١ » يقول : يجسم المولى عز وجل  
هذا الذكر ويمزجه بشخص الرسول — ﷺ — فيجعل شخصه الكريم  
هو الذكر أو بدلا منه في العبارة « رسولا ينظر عليكم آيات الله مبينات »  
وهنا لفظة مبدعة عميقة صادقة ذات دلالة متنوعة .

أن هذا الذكر الذي جاء من عند الله مر اليهم من خلال شخصية  
الرسول الصادق حتى لكان الذكر نفذ اليهم مباشرة بذاته ، لم تحجب  
شخصية الرسول شيئا من حقيقته ، والوجه الثاني لإيحاء النص هو  
أن شخصية الرسول — ﷺ — قد استحوذت ذكرا فهي صورة مجسمة  
لهذا الذكر صنعت به فصارت هو ، وهو ترجمة حية لحقيقة القرآن  
وكذلك كان رسول الله ﷺ .

( ٨ - الباحة )

وهكذا وصفته عائشة - رضى الله عنها - وهي تقول : « كان خلقه القرآن » ، وهكذا كان القرآن في خاطره في مواجهة الحياة ، وكان هو القرآن يواجه الحياة ، كان قرآنا يمشى على الأرض .  
 ومن وضع الجمع موضع الواحد وصف المفرد بالجمع قوله تعالى : « فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا » فقد وصف الطريق وهو مفرد بالجمع « يبسا » وهو وصف به لما يؤول اليه من اليبس ، لأنه حين الإضراب لم يكن يابسا وإنما مرّت عليه ريح الصبا فجففته .  
 وقيل : إن « يبسا » في الأصل مصدر وصف به بمبالغة أو على حذف مضاف أي ذاب يابس ، أو أنه جمع يابس وهذا هو محل التماس هنا كخادم وخدم وصف بها الواحد بمبالغة كقوله : ومعنى جياعا .  
 في قول الشاعر :

كان قترّد رحلى حين ضمت حوالب غرزا ومعنى جياعا

جعل الطريق لفرط يبسا كاشياء يابسة ، والمعنى : ليس فيها ماء ولا طين ولا ندى أو أنه قدر كل جزء من أجزاء الطريق طريقا يابسا فكانت كذلك لأنها كانت اثنتى عشر طريقا لكل سبط طريق والأرجح في هذا السياق هو وصف المفرد بالجمع هنا لقصد المبالغة ، حتى يتأكد للمعنى في ذهن المخاطبين لأن وصف الطريق في البحر باليبس من دلالة القدرة الإلهية وآية من آيات الإعجاز الكونى .

ومنه قول الشاعر « ومعنى جياعا » جعله لفرط جوعه كجماعة جياع وفى قوله تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة تلاميذ أنفسهم » (٢٧) تخيل : أن المراد بالملائكة ملك الموت فقط وهو من إطلاق الجمع على الواحد ، وهذا الرأى ضعيف لأنه لا مانع من نسبة التوفى إلى الله وإلى ملك الموت وإلى أعوانه .

سورة النساء الآية ٩٧ .

والوجه في ذلك أن الله تعالى هو الأخر بل القائل الحقيقي  
والأعوان هم المزاوون لأخراج الروح من نحو العروق والشرائين  
والعصب ، والملك هو القابض المباشر لأخذها بعد تهيتها فسيبها إلى  
الله في قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » ونسبتها إلى  
ملك الموت في قوله تعالى : « قل يتوفاكم ملك الموت » (٢٨)  
ونسبتها إلى الأعوان وهم رسل الملائكة في قوله تعالى : « حتى إذا  
جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفلتون » (٢٩) وعلى هذا يكون  
الجمع في الآية على حقيقته .

وفي قوله تعالى : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا ... الآية » (٣٠)  
المأمور في هذه الآية هو نبينا محمد ﷺ ، فكيف أتى بلفظ الجمع في  
« آمنا » و « علينا » والجواب من وجهين أحدهما أن يكون هو وأمته  
مأمورين بذلك وإنما حذف معطوفه لفهم المعنى والتقدير قل يا محمد  
أنت وأمتك : آمنا بالله .

وثانيهما : أن المأمور هو محمد ﷺ وحده وإنما خوطب بلفظ  
الجمع تعظيما له قال الزمخشري : ويجوز أن يؤمر بأن يتكلم عن نفسه  
كما تتكلم الملوك أجلالا من الله لقدر نبيه (٣١) .

ومن وضع الجمع الواحد ما تجده في توجه الخطاب بلفظ الجمع  
الذي أتى بكر الصديق - رضي الله عنه - لما حرم مسطحا رفده حين  
تبعه رسول الله ﷺ في حجة الوداع .

(٢٨) الآية ١١ من سورة السجدة .

(٢٩) الآية ٦١ من سورة الأنعام .

(٣٠) الآية ٨٤ من سورة آل عمران .

(٣١) الكشاف ٤٢/١ .

تكلم في حديث الامك في قوله تعالى : ولا ياتل أولوا الفضل منكم  
والبيعة أن يؤثرا أولى القربى . . . الآية (٣٣) وفي الآية مدح ونسب  
الإبي بكر من الله عز وجل حيث وصفه بأنه صاحب الفضل على الإطلاق  
من غير تقييد لذلك بشخص دون شخص وقد وصفه الله بصيغة التفضيل  
في آية أخرى في قوله تعالى : « وسيجنبها الأتقى » .

وهذا يدل على أن المراد من الفضل في الآية هو الفضل في الدين  
ويطلق عليه أيضا عطف السعة عليه إذ المراد السعة في الرزق ، والا لدان  
تكرارا . فالمراد عز وجل خاطب أبا بكر بلفظ الجمع دلالة على علو  
شأنه .

وفي هذا غاية التشريف والمدح لأنه صادر من له صفات الجلال  
والكمال ، وقد جمع الله عز وجل لمسطح ثلاث صفات بلفظ الجمع أيما  
وعى أنه كان من قرابة أبي بكر فهو ابن خالته ، وكان مسكينا ، وكان  
مهاجرا ، وهذه الصفات الثلاث التي اجتمعت في مسطح تقتضي أن  
أبي بكر أن يعفو عنه هذه الزلة ولكن أبا بكر وجد شدتها على نفسه  
لأن الظلم من ذى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الخصام المهند  
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الخصام المهند

وهن التعبير عن المفرد بلفظ الجمع ما جاء في قصة بلقيس فيما  
حكاه القرآن عنها قوله تعالى : « وأمره رسالة اليهم بهدية فناظرة بم  
يرجع المرسلون » فقد عبر عن الواحد بالجمع لأنه كان رسولا واحدا  
بدلالة قوله : « أرجع اليهم » (٣٣) وفيه نظر لأن الخطاب في قوله :

« أرجع اليهم »

« أرجع اليهم »

(٣٢) سورة النور الآية ٣٢ .

(٣٣) انظر : البرهان للزركشي ٢/٣٣٧ .

«ارجع» قد يكون لرئيسهم فإن الحقيقة إجارية — لا سيما من الملوك  
 ألا يرسلوا واحدا بدليل قراءة ابن مسعود — رضى الله عنه — «ارجعوا  
 إليهم» أراد الرسول ومن معه .

وقد يكون الموجب للجمع ويضع الواحد هو مراعاة  
 التناسق اللفظي في القرآن بتوافق خواصه وذلك إذا كانت الفاصلة  
 أو الحرف الأخير فيها مسبوقا بحرف مد مفتوح كما في قوله تعالى :  
 «من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلاق» (٣٤) فالمراد خلة بدليل  
 الآية الأخرى وهي قوله تعالى : «من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه  
 ولا خلة ولا شفاعة» (٣٥) .

وهن وضع الجمع ووضع الواحد ما تجده في جمع الرسل ،  
 والمراد به الرسول ﷺ في قوله تعالى : «نحب دعوتك ونتبع الرسل»  
 جمع الرسل هنا أما باعتبار اتفاق الجميع على التوحيد ، وكون عصيانهم  
 للرسول ﷺ عصيانا لهم جميعا عليهم السلام ، وأما باعتبار أن المحكى  
 كلام ظالمى الأمم جميعا ، والمقصود ببيان وعد كل أمة بالتوحيد واتباع  
 رسولها على ما قيل (٣٦) .

والمراد به الرسول ﷺ في قوله تعالى : «نحب دعوتك ونتبع الرسل»  
 جمع الرسل هنا أما باعتبار اتفاق الجميع على التوحيد ، وكون عصيانهم

للرسول ﷺ عصيانا لهم جميعا عليهم السلام ، وأما باعتبار أن المحكى

كلام ظالمى الأمم جميعا ،

والمقصود ببيان وعد كل أمة بالتوحيد واتباع

رسولها على ما قيل (٣٦) .

(٣٤) سورة إبراهيم الآية ٣١ : «من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلاق»

(٣٥) سورة البقرة الآية ٢٥٤ : «من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة»

(٣٦) روح المعاني ٢٤٨/١٣ : «المراد به الرسول ﷺ في قوله تعالى : «نحب دعوتك ونتبع الرسل»

## الفصل الخامس

### الدلالة البلاغية للأفراد

قد يؤثر النظم القرآني المفرد على الجمع ليس بلامى يقتضيه المقام كما فى قوله تعالى : « ولنبليوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » وبشر الصابرين « (١) » قال : « بشيء » ولم يقل بأشياء بيانا لتخفيفه ورحمته وأن ابتلاءه يكون بشيء أى بشيء قليل وقد استغيدت الغلة من تنكير الكلمة ومن ملاحظة أن لفظة شيء قد تطلق ويراد منها أدنى شيء .

يقول الرازى : « إنما قال سبحانه « بشيء » على الوجدان » ولم يقل بأشياء على الجمع لوجهين :

الأول : لثلاث يومهم بأشياء من كل واحد فيبدل على ضروب الخوف والتقدير بشيء من كذا وشيء من كذا .

الثانى : معناه بشيء قليل من هذه الأشياء (٢) .

وفى قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » (٣) .

يقول الرازى (٤) : لم قال « أم الكتاب » ولم يقل أمهات الكتاب ؟

(١) سورة البقرة الآية ١٥٥ .

(٢) التفسير الكبير ٥٤٣/٢ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٧ .

(٤) المرجع السابق .

الجواب : أن مجموع المحكمات في تقدير شيء واحد ، ومجموع المتشابهات في تقدير شيء آخر واحدهما أم الأخرى ، ونفسه قوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية » ولم يقل : آيتين ، وانفسه قال ذلك على معنى أن مجموعهما آية واحدة لمذلك هنا فقد عبر القرآن بالأصل ، لأن أم كل شيء : أصله وعماده .

هذا بالإضافة إلى أن اختيار المفرد له دلالة اللفظية في نسق الكلام وجرسه ، ونو قال « أهيات » لكنت الكلمة قلقة في مكانها ، وكانت نافية وثقيلة على السمع وأيضا ففي التعبير بالمفرد دلالة بينة بأن كل آية منها تعد أدا وأبو قال : أهيات لكان الكلام عن مجموعها فقط وأنها كلها أم ولا يحس أن تكون واحدة أما وقيل : المراد صنف الآيات المحكمات يتنزل من الكتاب منزلة أمه أي أصله ومرجعه الذي يرجع إليه في فهم الكتاب ومقاصده ويعلم منه أن كل آية من المحكمات أم الكتاب في ما تتضمنه من المعنى وهذا يشعر بعزة ورفع كل آية وأنها أم في حد ذاتها ، وطك طريقة من طرق بلاغة القرآن وسنة من سنن العرب في كلامها (٥) .

والقرآن الكريم ضرب مثلا لرجلين جعل لأحدهما جنتين من أعناب ثم بعد ذلك عدل النظم القرآني عن التثنية إلى الأفراد في قوله تعالى : « ودخل جنته وهو خالغ لنفسه » (٦) فما سر الأفراد بعد التثنية ؟

قيل : أفرد لأن الدخول لا يمكن أن يكون في الجنتين في وقت واحد ، وإنما يكون في واحدة واحدة فلملح دخل واحدة منها ثم قال هذا القول قبل أن يدخل الثانية ، وعلى هذا يكون الأفراد على حقيقتها .

نلاحظ أن قوله تعالى : « ودخل جنته وهو خالغ لنفسه » (٦) ينظر الزمخشري في عدم التثنية ٣٣٢/١ .



وقد يقال: إن المراد من الجنة كل ما هو جنة له يتمتع بها، على أن الإضافة للاستعراق والعموم تقتضي ما أفادته التثنية مع زيادة وهي الإشارة إلى أنه لا جنة له غير ذلك، ولا حظ له في الجنة التي وعد المتقين.

والى هذا ذهب الزمخشري وهو معنى لطيف قد تصوره على أبي حيان فتعقب الزمخشري بقوله: ولا يتصور ما قال، لأن قوله « ودخل جنته » اخبار من الله تعالى بأن هذا الكافر دخل جنته فلا بد أن قصد في الاخبار أنه دخل إحدى جنتيه إذ لا يمكن أن يدخلها معا في وقت واحد، وقد رد على أبي حيان السمين الحلبي منتصرا للزمخشري فقال: « من ادعى دخولهما في وقت واحد حتى يلزمه هذا المستحيل في البداية » قال أبو البقاء « إنما أفرد لأنهما جميعا ولكه صار كالتثنية الواحد، وقد اكتفى به من التثنية للعلم بالمبالغة كما اكتفى بالواحد عن الجمع في قول الهذلي:

قالعين بعدهم فإن حداقها سملت بشوكهم عور تدمع

فالضمير في « سملت » مفرد يعود على حداقها وهي جمع تكسير. وقد يرد عليه بأن جمع التكسير يجري مجرى المؤنثة في عود الضمير عليه، وبهذا لا ينهض البيت شاهدا لأبي البقاء في ما ذهب إليه.

وقيل: أفرد لاتصال أحدهما بالآخرى فكانتا في حكم المفرد.

والأفراد في قوله تعالى: « وعرضوا على ربك صفا » أي مصطفين له موقع عظيم، لأن الأفراد وإن كان في معنى الجمع أي صلوفا، « صفا » مصدر وقد تكرر القول بأنه يقع موقع الجمع لدلالته عليه، إلا أن وراء الأفراد والمدول عن الجمع سرا بلاغيا دقيقا وهو

الجواب : أن مجموع المحكمات في تقدير شيء واحد ، ومجموع المتشابهات في تقدير شيء آخر واحدهما أم الأخرى ، ونفسه قوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية » ولم يقل : آيتين ، وانفسه قال ذلك على معنى أن مجموعهما آية واحدة لمذلك هنا فقد عبر القرآن بالأصل ، لأن أم كل شيء : أصله وعماده .

هذا بالإضافة إلى أن اختيار المفرد له دلالة اللفظية في نسق الكلام وجرسه ، ونو قال « أهيات » لكنت الكلمة قلقة في مكانها ، وكانت نافية وثقيلة على السمع وأيضا ففي التعبير بالمفرد دلالة بينة بأن كل آية منها تعد أدا وأبو قال : أهيات لكان الكلام عن مجموعها فقط وأنها كلها أم ولا يحسح أن تكون واحدة أما وقيل : المراد صنف الآيات المحكمات يتنزل من الكتاب منزلة أمه أي أصله ومرجعه الذي يرجع إليه في فهم الكتاب ومقاصده ويعلم منه أن كل آية من المحكمات أم الكتاب في ما تتضمنه من المعنى وهذا يشعر بعزة ورفع كل آية وأنها أم في حد ذاتها ، وطك طريقة من طرق بلاغة القرآن وسنة من سنن العرب في كلامها (٥) .

والقرآن الكريم ضرب مثلا لرجلين جعل لأحدهما جنتين من أعناب ثم بعد ذلك عدل النظم القرآني عن التثنية إلى الأفراد في قوله تعالى : « ودخل جنته وهو خالغ لنفسه » (٦) فما سر الأفراد بعد التثنية ؟

قيل : أفرد لأن الدخول لا يمكن أن يكون في الجنتين في وقت واحد ، وإنما يكون في واحدة واحدة فلملح دخل واحدة منها ثم قال هذا القول قبل أن يدخل الثانية ، وعلى هذا يكون الأفراد على حقيقتها .

نلاحظ أن قوله تعالى : « ودخل جنته وهو خالغ لنفسه » (٦) في سورة النجم ٣٣/١ .  
(٥) ينظر الزمخشري في علوم اللغة ٣٣٢/١ .  
(٦) الكهف ٣٥ .

التي وهن العظم متى « فالقصد على هذا القلم : المصالح الضعيف غير  
التي وأبداه تساقط القوى ، وقد على هذا المعنى يوهن جنس العظم  
أي أن قوله تعالى : « وهن العظم متى » كناية عن وهن جميع البدن  
ويستفاد ، لأن البدن كالبنيان ، والعظم كالمعمود للبيت ، وإذا وقع الخلل  
في العمود تداعى البيت أي تهدم وسقط فهي كناية مرتبة على التشبيه  
أو لأن العظم أصل ما في البدن ، فإذا وهن كان غيره من الأعضاء إلى  
أنه أولى فهي كناية بلا تشبيه .

ووجد العظم ، لأن القصد إلى وهن جنس العظم الذي هو عمود  
البدن وأصل ما فيه ليكون كناية عن وهن جميع الأعضاء ، ولو جمعه  
لكان القصد إلى عدم وهن بعض العظام فاللام في العظم للجنس  
والغرض منه استغراق أفراد هذا الجنس يوهن العظم ويقاس عليه  
أو نظيره قوله تعالى : « ولا يفلح الساحر حيث أتى » فإنه لو قيل :  
السحرة لا يؤمنون أن الجمعية معتبرة في الحكم بعدم الفلاح .

والحاصل : أن القصد إلى ثبوت الوهن في جنس العظم الذي  
هو عمود البدن وبه قوامه ، ولو قيل العظام لكان القصد إلى أن الوهن  
في أفراد العظم ، وحينئذ ربما يتوهم أن الجمعية معتبرة في ثبوت هذا  
الحكم فلا يكون الوهن ثابتاً في بعض العظام ، وهو خلاف المقصود .

وقد يعود التفسير مفرداً مع تقدم اثنين كما في قوله تعالى :  
« والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله » (٨)  
أقره التفسير في « ينفقونها » مع تقدم اثنين وهما : « الذهب والفضة »  
نظراً إلى عودة إلى الفضة لقربها ولأنها أكثر من الذهب .

والمعنى : ولا يتفقونها والذهب كما أن معنى قوله : « بل قد مضى »

وإني وقيار بها القريب •

إي وقيار كذلك •

وقيل : الضمير عاد إلى المعنى دون اللفظ ، لأن المكنوز دراحم ودينانير ، وإنما خص الذهب والفضة بالذكر لأنهما قانون التمول وأمان الإثنية فهو كقوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » (٩) •

وفي قوله تعالى : « وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها » (١٠) تقدم اثنان وهما اللهو والتجارة وعاد الضمير مفردا على واحد منهما ، وفي تأويله أقوال •

أحدها أن في الكلام حذف تقديره : وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهوا انفضوا إليه ، فحذف الثاني لدلالة الأول عليه •  
وقد عاد الضمير على التجارة لأنها أهم عندهم من اللهو ولأن الحدث الذي نزلت الآية بسببه هو مجيء غير ذرية من الشام •

ثانيها : ليس في الكلام حذف ، وإنما هو من باب الانقضاء أي اكتفى بضمير التجارة عن ضمير اللهو •

ثالثها : قيل : هو من باب التعليل أي غلب ضمير التجارة على ضمير اللهو حيث عاد الضمير مؤنثا لأن التجارة كانت الداعي الأقوى لانفضائهم •

وقد ترد اللفظة مفردة في سياق بينها نجدتها هي بذاتها في سياق آخر ترد مجموعة فما السر في ذلك ؟

١١٠ سورة القصص ١٥٠ الآية ١٦

(٩) انظر الكشف ٨٨٧/٢ رقم ١٢٢ ب ١٤ ق ١٥

(١٠) سورة الجمعة الآية الأخيرة في ١١ انظر ١٢٢



حسباً كأنهم بنيان مرصوص » لم يقل صفوفا إشارة إلى أن الجماعة المسلمة ينبغي أن تكون على قلب رجل واحد في الجهاد في سبيل الله غايتهم واحدة وهدفهم واحد وهو إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ، فلا حزبية ولا تعددية ولا طبقية فهم في ميدان الجهاد وإن كانوا صفوفاً متراصة إلا أنهم بمثابة الصف الواحد .

وهذا يشير إلى وحدة العقيدة ووحدة الطريق المستقيم وهو صراط الله الذي إليه وحده يكون المصير فهم يقاتلون في سبيل الله لا في سبيل ذواتهم أو عصبيتهم من أي لون عصبية الجنس وعصبية الأرض ، وعصبية العشيرة .

ويشير إلى مدى تعاونهم وتضامنهم وتماسكهم كالبنيان الذي تتعاون لبناته في إقامة القصور والمروح وكل لبنة فيه تؤدي دورها تأخذ بحجز الأخرى وتشد من أزرها في نظام بديع ونسب متكامل لا تشذ فيه لبنة عن الأخرى ، فالبنيان كله ينهار إذا تخلت منه لبنة عن مكانها أو عن أداء دورها ، فالمجتمع الإسلامي يجب أن يكون على هذا الترابط والتضامك والمساواة كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفيها .

وعلى قوله تعالى : « أم يقولون نحن جميع منتصر » (١٥) فقد أخبر عن الجمع بالمفرد مما يفقد التطابق بين المبتدأ والخبر ، فمما سر هذه المخالفة ؟ قال الرازي : أفرد « منتصر » لجأورته جميع لكنه « إن كان في معنى الجمع إلا أن لفظه مفرد ويحتمل أن يقال : معنى « نحن جميع منتصر » أن جميعاً بمعنى كل واحد ، كأنه قال : نحن كل واحد منا منتصر كما تقول : هم جميعهم أقوياء بمعنى أن كل واحد منهم قدير .

(١٥) سورة القمر آية ٤٤ .

١٢٨٠ ر. هـ / ١٩٦٨ م. دار الفكر - بيروت

شئى وهم كلهم غمما أى كل واحد عالم بترك الجمع واختار الأفراد  
لغرض الخبر إلى كل واحد ، فانهم كانوا يقولون : كل واحد منكم يعلم  
مفعلا - مفعلا .

كما قال أبى بن خلف الجهمى ، وهذا فيه معنى لطيف ، وهو أنهم  
ادعوا أن كل واحد غالب ، ولذلك كان رد الله عليهم مقابلا لقولهم وهو  
أنهم يولون الدبر جميعا لا يتخلف منهم أحد عن التولية فهم كنفس  
واحدة كما قرئناه فى الآية السابقة ويضاف إلى هذا السر المعنوى سر  
آخر لفظي حيث عدل النظم القرآنى عن « منتصرون » إلى « منتصر »  
اتباعا لرؤوس الآية ليتسق النظم فى الفاصلة القرآنية .

وقد يؤتى بالمفرد دون الجمع للنص على حكم شرعى لا يتأتى من  
الجمع كما فى قوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين »  
فسر أفراد المسكين هو الدلالة المطابقة على حكم شرعى وهو أن من  
تشتد به مشقة الصوم وهم الشيخ الهرم والمرأة المرضع والصال  
يرخص لهم فى الإفطار والفدية ، وتحديد الفدية بالنص عليها وهو  
أن عليه إطعام مسكين واحد عن كل يوم يفطر فيه ، ولا يفهم ذلك من  
الجمع فالمراد بالأفراد هنا هو أفراد العموم .

وطعام المراد به إطعام فهو مصدر ويضعف أن يراد به المفعول .  
لأنه أضاعه إلى المسكين وليس الطعام للمسكين قبل تملكه إياه ، فلو  
حمل على ذلك لكان مجازا ، لأنه يصير تقديره فعليه اخراج طعام  
يصير للمساكين فهو من باب تسمية الشيء بما يؤول إليه ، وهو وإن  
كان جائزا إلا أنه مجاز ، والحقيقة أولى منه (١٦) وأما قراءة  
« مساكين » بالجمع فعلى اعتبار جمع الذين يطيقونه فهو من مقابلة  
الجمع بالجمع مثل ركب الناس دوابهم .

• ٢٢ •



وحيث لا يثبت على ما كان في الأصل من خوف كذا فيقولون: «لا يثبت»  
(٦) «لا يثبت» على ما كان في الأصل من خوف كذا فيقولون: «لا يثبت»

### الفصل السادس

#### الدلالة البلاغية للجمع

في قوله تعالى: «وظهر بيني للطائفين والقيامين والركع  
السنجود» فقد جمعت هذه الألفاظ لمسا في الجمع من دلالة العموم،  
لأن الجمع كما يقول صاحب الطراز أدل على العموم من المفرد (١)،  
وما يقوله صاحب الطراز مخالف لما قاله الزمخشري عند تفسير قوله  
تعالى: «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله  
وملائكته وكتبه ورسله» حيث قال: «وقرأ ابن عباس «وكتابه» يريد  
القرآن أو الجنس وعنه «الكتاب أكثر من الكتب»، فان قلت كيف  
يكون الواحد أكثر من جمع؟ قلت: لأنه إذا أريد بالواحد الجنس،  
والجنسية قائمة في وجدان الجنس كلها لم يفرج منه شيء.

فأما الجمع فلا يدخل تحته إلا ما فيه الجنسية من الجموع (٢)  
وما قاله صاحب الكشاف فيه نظر، لأن معنى كلامه أن العموم باعتبار  
الأفراد، وأفراد الكتب آحاد، وأفراد الجموع جموع، ولا شك أن  
الأحاد أكثر من الجموع، ويرد عليه بأن عموم الجمع ليس باعتبار  
الجموع، فإن العام لفظ يتناول مسميات باعتبار أمر اشتركت فيه كما  
أن المسلمين عام لأنه يتناول زيدا لأنه مسلم، وعمرا لأنه مسلم ويكرا  
لأنه كذلك، والأفراد التي يتناولها الجمع ليست أفرادا للجمع بل هي

(١) الطراز.

(٢) الكشاف ٧/١، «تسميات» و«ألفاظ» قريبة ل«ألفاظ» (٦)



أفراد للأمر المشترك فلا يفهم من المسلمين إلا آحاد المسلم لا جموع المسلمين ، والا لكان الخطاب لا يتناول الآحاد وليس كذلك (٣) .

ويؤيد هذا ما قاله الطاهر بن عاشور : « واثق أن المفرد والجمع سواء في إرادة الجنس ألا تراهم يقولون : إن الجمع في مدخول الالجنسية صوري ، ولذلك يقال : إذا دخلت الالجنسية على جمع أبطلت منه معنى الجمعية ، وإن يصح ما نقل عن ابن عباس فتأويله أنه أكثر مساواته له معنى مع كونه أخصر لفظا ، فلهذا أراد بالأكثر معنى الأرجح والأكثرى ونعبر إلى بيان سر جمع الألفاظ في آية : « وطهروا بيوتكم للطائفين والقائمين والركع السجود » .

فقد جمعت الطائفين والقائمين جمع سلامة والسر في جمعها على هذا الجمع هو ما في لفظ اسم انفعال من الأشعار بالثبوت والاستمرار التجدد ، فإن البيت العتيق لا يخلو من الطائفين والقائمين في أي زمن من الأزمنة وهم مستمرين في الطواف والقيام استمرارا يتجدد بتجدد الطائفين والقائمين الذين يقصدونه من كل فج وصوب ، ومن أجل هذا عدل عن المجيء بالفعل لأنه مقيد بزمن .

ثم أتى بعد ذلك بالركع السجود ، وإنما جمعها جمع تكسير وعدل عن جمعها جمع السلامة لما ذكر من أن جمع السلامة في الطائفة والقائمة فيه تنبيه على تجدد الطواف المختص بالبيت ، واستمراره والقيام لأنه نوع منه بخلاف الركوع والسجود فانهما لا يختصان بالبيت بل كما يكونان فيه يكرران بغيره من جميع الأماكن في الأرض ثم وصف الركع بالسجود ، ولم يعطفه بالواو كما فعل

(٣) انظر حاشية قطب الدين التتائي على الكشاف ورقة ٤٨٩ .

ملائكتين ، لأن الركع هم السجود ، والشخص لا يعطف على نفسه كما لا تقول : جاءني زيد والكريم على أن يكون الكريم هو زيد اللهم إلا إذا كان على سبيل التجريد كما إذا جردت من زيد شخصا آخر ووصفته بالكريم وهو أى الشخص هو زيد وليس انسانا آخر للمبالغة ، وفى الآية مانع آخر للعطف وهو أن السجود قد يكون عبارة عن المصدر فلو عطفه لأوهم كونه مصدرا والمراد الجمع .

غان قبيل : هلا قال : السجد ليطلق فحذله : الركع كما جاء فى آية أخرى « تراهم ركعا سجدا » أو قال : الركوع ليتطابق السجود فما وجه المخالفة بينهما ؟

والجواب أن السجود يطلق على وضع الجبهة على الأرض وعلى الخشوع ، ولو قال السجد لم يتناول إلا المعنى الظاهر من غير إغادة الخشوع ، ويصدق ذلك قوله تعالى : « تراهم ركعا سجدا » لما كان من رؤية العين ، ورؤية العين لا تتعلق إلا بالظاهر فقصد بذلك الإشارة إلى السجود المعنوي فالمصوري بخلاف الركوع فإنه ظاهر فى أعمال الجوارح الظاهرة التى لا يشترط فيها البيت كما فى الطواف والقياسم المتقدمين دون أعمال القلب ، فالأجل هذا جعل السجود وضعا الركع ، وإنما أراد الخشوع الذى هو روح الصلاة وكمالها (٤) .

وقد يكون فى الجمع دلالة على الحرمة والأجلال والتعظيم لمقام رسول الله ﷺ كما فى قوله تعالى : « أن الذين ينسأؤوك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » .

يقول الزمخشري : وهناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرقوا

(٤) الطراز للملوى ص ٦٤ ، ٦٥ .  
(٥) من البلاغة .

على الحجرات متطلبين له فناداه بعض من وراء هذه وبعض من وراء ذلك ، وأنهم قد أتوا حجرة فنادوه من ورائها ، وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها ، ولكنها جمعت إجلالا لرسول الله ﷺ ولحسن حرمة (هـ) فالزمخشري يدرك يحسه البلاغي السر في العدول عن المفرد الى الجمع فهو ﷺ كان في حجرة واحدة من حجرات فنادوه من ورائها ، والمولى عز وجل يأتي أن يواجه رسوله ومصطفاه بهذا التحديد عياني بصيغة الجمع إجلالا ورفعة لمكانة رسوله ﷺ ولكان حرمة ، ولذا يقول الزمخشري : فورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات اكبار محل رسول الله ﷺ وإجلاله ، منها مجيئها على النظم المسجل على الصائحين بالسف وانهل لها أقدموا عليه ومنها لفظ الحجرات وإيقاعها كتابة عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه ، ومنها المرور على لفظها بالاختصار على القدر الذي تبين به ما استتكر عليهم (٦) .

وقد يكون الشيء واحدا ، ولكنه يجمع لتعدد الفعل المتعلق به كما في قوله تعالى : « والوزن يوهئ الحق فمن نقلت موازينه فأولئك هم المفلحون » قين : جمع ميزان القيامة مع أنه واحد باعتبار تعدد ما يوزن به من الأعمال أو باعتبار أنه يقوم مقام موازين كثيرة ، لكنه يميز الذرة وما هو كالجبال (٧) .

من المعلوم أن جمع السلامة مختص بالمعقلاء ، ولكنه أحيانا قد يأتي لجمع غير المعقل ، وذلك لنكتة بلاغية يقتضيها المقام فقد سبق في

(٥) الكشف ٥٥٨/٣ .

(٦) الكشف الموضع السابق .

(٧) فتح الرحمن يكشف ما يلتبس في القرآن ص ٧٨٦ .

حمورة يوسف أن المولى عز وجل عامل الكواكب معاملة العقلاء فوصفهم بجمع السلامة في قوله تعالى : «والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين» لأنه سبحانه أسند اليهم فعل العقلاء وهو السجود ، والشيء قد يعامل بمعاملة شيء آخر إذا شاركه في صفة ما .

وفي قوله تعالى في سورة الشعراء : «فظلت أعناقهم لها خاضعين» فحوله تعالى : «خاضعين» خبر ظل وهو في المعنى وصف للأعناق وهي مما لا يعقل فكان مقتضى الظاهر أن يقول : «فظلت أعناقهم لها خاضعة» ولكن النظم القرآني عدل عنه الى جمع السلامة لاقتضاء المقام آياه ، ولذلك وجه المفسرون هذا الجمع بعدة توجيهات : أحدها : أن المراد بالأعناق الرؤساء كما قيل لهم وجوه وصحور ، وعلى هذا يكون مجازا مرسلًا علاقته الجزئية عبر بالجزء وآراد الكل لما لهذا الجزء من أثر كبير في المعنى المراد من الكل وهو الخضوع للرؤساء كما قيل :

● في محفل من نواصى الخيل مشهور ●

ثانيها : أنه على حذف مضاف أى فظل أصحاب الأعناق ثم حذف ، وبقي الخبر على ما كان عليه قبل حذف الخبر عنه مراعاة للمحذوف .

الثالث : أنه لما أضيف الى العقلاء اكتسب منهم هذا الحكم كما يكتسب التائب بالاضافة لمؤث في قوله :

● كما شرقت صدر القناة من الدم ●

الرابع : أنها عوملت معاملة العقلاء لما أسند اليهم ما يكون من فعل العقلاء كقوله «ساجدين» و «طائعين» في يوسف والسجدة الخامس : قيل : أصل الكلام : فظلوا لها خاضعين فذكرت الأعناق البيان موضع الخضوع ثم ترك الكلام على أصله .

وقد يكون المفرد دالا على الكثرة من أصل الوضع ثم يجمع هذا المفرد فتضاعف الكثرة .

وقد يترقى في الدلالة على زيادة مضاعفة الكثرة فيتبع الجمع بوصف مشتق منه كما في قوله تعالى : « والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة » (٨) فالمقنطار مفردا يفيد الكثرة بدلالة قوله تعالى : « وآتيتهم بعداهن قنطارا » وقد كان القنطار عند العرب وزنا ومقدارا من الثروة يبلغه بعض الثرين وهو أن يبلغ ماله مائة رطل غضة ، ويقولون : قنطر الرجل إذا بلغ ماله قنطارا وهنا جمع القنطار على قناطير وهو جمع كثرة .

ولم يكتف بهذا بل وصف القناطير بوصف مشتق منها وهو « المقنطرة » للدلالة على تكثيرها مع كثرتها في ذاتها بل أريد هنا المضاعفة المتكاثرة لأن اشتقاق الوصف من اسم الشيء الموصوف إذا اشتهر صاحب الاسم بصفة يؤذن ذلك الاشتقاق بمبالغة في الحاصل به كفولهم : ليل الليل ، وظل ظليل وداهية داهية ، وشعر شاعر ، وأبل مؤبلة ، وآلاف مؤلفة (٩) .

وقد يكون الجمع دالا على التصغير والتحقير كما في قوله تعالى : « ولم تقول علينا بعض الأقاويل » (١٠) الأقاويل جمع أقواله وأقوال جمع قول فهو جمع الجمع .

قال الزمخشري : سمي الأقوال المنقولة أقاويل تصغيرا لها وتحقيرا .

(٨) آل عمران الآية ١٤ .

(٩) التحرير والتنوير ١٨٢/٣ .

(١٠) سورة الحاقة الآية ٤٤ .

كقولك : **الاعاجيب والاماليك** (١١) ، في احوال مكلفة لا وزن لها  
 لأن فيها نسبة قول الى الله تعالى لم يترك .  
 وفي قوله تعالى : « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من  
 العلم » (١٢) في صيغة « أهوائهم » بالجمع إشارة الى كثرة الاختلاف  
 بينهم وأن بعضهم يكثر بعضها (١٣) .  
 الدلالة البلاغية لجمع المصدر :

من المعلوم أن المصدر لا يجمع في الاسم الأغلب لدلالته على  
 التثنية والكثير وقد يجمع المصدر للدلالة على اختلاف أنواعه كما في  
 قوله تعالى : « الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » فجمعت الأمانة  
 وهي مصدر للدلالة على اختلاف أنواعها لوقوعها على الصلاة والزكاة  
 والصوم والحج . وغير ذلك من العبادات ولوقوعها أيضا على حقوق  
 العباد فجاء جمعها لأنها لاختلاف أنواعها ثابته المفعول به فجمعت  
 كما يجمع المفعول به (١٤) . ولم يكن العهد لا يتنوع تنوع الأمانة  
 أفرد .

وقد جمع المصدر أيضا لاختلاف أنواعه في قوله تعالى :  
 « وتظنون بالله الظنونا » فقد جمع الظن وهو خطاب للذين آمنوا وهم  
 ليسوا على درجة واحدة من الإيمان فمنهم الثابت القارب والافتدأ ،  
 والضعاف القلوب الذين هم على حرفة ، والمنافقون الذين لم يوجد  
 الإيمان منهم الا بالسنتهم ، فالبد أن يتنوع ظن هؤلاء الطوائف

(١١) الكشف ٤ .

(١٢) سورة البقرة آية رقم ١٢٠ .

(١٣) روح المعاني ١/٣٨٢ .

(١٤) تحفة الاشراف في كشف غوامض الكشف للفاضل اليمني

المؤلف .

الثلاث بالله إزاء قوة المشركين الذين تحزبوا واجتمعوا لقتال المسلمين في غزوة الأحزاب حيث جاءوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، وحينئذ زأغت منهم الأيصار وبلغت القلوب الحناجر ، فكان ظن الأولون بالله أنه يبتليهم ويقتلهم فخافوا الزلزال وضعف الاحتمال ، وأما الآخرون وهم ضعاف القلوب والمنافقون فظنوا بالله ما حكى عنهم في قوله تعالى : « واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا » فظن المنافقون أن المسلمين يستأصلون (١٥) .

ومن الجمع لاختلاف أنواعه قوله تعالى : « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره » .

والمعنى : سخر لكم هذه المخلوقات ونفعكم بها في حال كونها مسخرات لما خلقت له وقد سخرها أنواعا من التسخير فجمع مسخر بمعنى تسخير لأرادة الأنواع إذ التسخير يتنوع بحسب المنفعة الملوطة به فسخر النهار للعمل والسمي والنيل للسكون والراحة والشمس للدفء في الشتاء ونمو النبات والأشجار ، والظل للبرد في الصيف ، وتسخير الشجر للأكل من ثماره والنجوم للاعتداء بها والقمر لحساب الشهور والسنين وغير ذلك من أنواع التسخير ومعنى تسخيرها أي إنقيادها وجعلها خاضعة للنظام الذي خلقها الله عليه بدون تغيير لمنفعة الإنسان وإقامة حياته على ظهر الأرض .

فقد أصبحت هذه الأشياء لكونها تابعة لتدبيره وتصريفه كما يشاء كأنهم مأمورات متقادة لأمره بل كان لها قوة الإحساس لدرجة أنها تسمع الأمر وتتجاوب معه ! إذا أثر القرآن الكريم التعبير بالأمر مرادا به القضاء لبيان مدى قدرته وأرادته في تحريك وتسخير تلك المخلوقات على معنى أنها إذا صدر الأمر لها سرعان ما تستجيب لأمره وتتقاسم له .

ونلاحظ أيضا أنه جمع الآية وذكر العقل في تدليل الآية بقوله « ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » والسرفى ذلك هو أن كل ما ذكرنا في الآية من المخلوقات المسخرة العلوية وهي تظهر دلالة على القدرة الباهرة وهي متمسكة وفيها أنواع من الدلالات والآثار العلوية ظاهرة في مرأى العين تدرك بالعقل ، وختمت به الآية للدلالة على أن كل من كان عاقلا علم بطريق الاستدلال العقلى على أن مسخر هذه الأشياء لمنفعة الإنسان هو الله وحده القادر على كل شيء وبطل ما يقوله التجاحدون من الدهريين من أن يكون حدوث النبات والحيوان لأجل تأثير الطباع والأفلاك والكجيم .

وقد أفردت الآية في الآية السابقة للدلالة على وحدة المدلول عليه وهي نعمة الماء الذى يكون سببا في احداث نعم المأكّل من انجيران والنبات والمشرّب من الماء العذب النازل من السماء .

والمعنى : « ان في ذلك لآية » أى في انزال الماء من السماء ليكون سببا في حياة الانسان لأنه يكون سببا فيما به قرام حياته من المأكّل والمشرّب .

وقد جمعت الآية وأفردت في السورة السابقة وهي سورة الحجر في قوله تعالى أولا : « ان في ذلك لآيات للمتوسمين » ثم قال بعد ذلك : « ان في ذلك لآية للمؤمنين » ولعل السرفى جمع الآية .

أولا : وافرادها بعد ذلك بآية واحدة هو ما نفهمه من السياق فقد ذكرت أولا بالجمع بعد الحديث عن قوم لوط وما نزل بهم من العذاب جزاء ما ارتكبه من الفاحشة ، وهذا العذاب قد تنوع فقد عذبوا أولا : بالصيحة الهائلة المنكرة . وعذبوا ثانيا : بانقلاب قرينتهم يجعل عليها ساقطها .



وعظيها ثلثا : بما أمطر عليهم من حجارة من سجيل ، وكل نوع من أنواع هذا العذاب ينبغي أن يكون آية مستقلة في التيميم والاعتبار لا سيما إن آثار هذه « مقابلة الجمع بالجمع » .

قد يقتضى المقام النص على مقابلة الجمع بالجمع أى مقابلة كل فرد من هذا بكل فرد من هذا كقوله تعالى : « فاستيقروا الخيرات » (١٦) ، كان من الجائز في غير القرآن أن يقال فاستيقروا الخير ، ولكنه جمع لأنكته بلاغية لاقتضاء المقام أن كل فرد مأمور بالاستيقاق إلى كل خير ، وليتم كل وجوه الخير كما يقال لبس القوم ثيابهم ، وركبوا دوابهم ، ومنه قوله تعالى : « حافظوا على الصلوات » (١٧) فمقابلة الجمع بالجمع تفيد أن كل فرد مأمور بالحفاظة على كل الصلوات في أوقاتها المحددة صلاة بعد صلاة .

ومنه قوله تعالى : « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله » (١٨) جمع أولياء مراعاة لجمع المخاطبين ، فإن المراد نهى كل من المخاطبين عن اتخاذ كل من المنافقين وليا أى إذا كن حالهم ما ذكر من الودادة فلا توالوهم ومن مقابلة الجمع بالجمع قوله تعالى : « وهالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلا أى أرشد كلا منا سبيله ومنهاجه الذى شرع له وأوجب عليه سلوكه في الدين » (١٩) فجمع السبيل جاء اعتبار جمع سلكيه أى هدى كل واحد منا سبيله .

ومن مقابلة الجمع بالجمع في التشبيه قوله تعالى : « ثم قسمت قلوبكم بعد ذلك فهي كالحجارة » يقول الألوسى : فهي كالحجارة أى في القسوة وعدم التأثير وجمع الحجارة لمقابلة جمع القلوب ، وللاشارة إلى أنها متفاوتة في الصلابة كما أن الحجارة متفاوتة في الصلابة (٢٠)

(١٦) سورة البقرة الآية ١٤٨ (١٧) سورة البقرة الآية ٢٣٨ .  
(١٨) سورة النساء من الآية رقم ٨٩ (١٩) روح المعاني ١٩٨/١٣ .  
(٢٠) روح المعاني ٣٩٥/١ .

فما يشبهه ربه يستعمل الرزق له رزقاً ، فليس الرزق هو الثمرة بل هو ما يشبهه ربه .

## الفصل السابع

### بين الأفراد والتثنية

ومن وقوع الضمير مفرداً موقع التثنية :

قوله تعالى : « كلما رزقوا منها من ثمرة رزقنا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها » كان مقتضى الظاهر أن يقول « وأتوا بهم متشابها » لأن المتشابه إنما هو ما رزقوه من ثمرة الدنيا وثمره الآخرة ولكنه عدل عن الظاهر وأتى بالضمير مفرداً لاعتبار المعنى وهو أن جنس المرزوق في الآخرة هو جنس المرزوق في الدنيا ، وكأنهما شيء واحد لا يمكن للدرء أن يفرق بينهما والدليل على ذلك قولهم عند رؤية ما رزقوه من الثمرة : « هذا الذي رزقنا من قبل » ولا يقال أن الآية ليس فيها عدول عن الظاهر لأن الضمير عائد إلى جنس ما رزقوه في الدنيا والآخرة .

نقول : هب أن الضمير في « به » يعود إلى المرزوق لكن قوله « متشابها » حال من هذا الضمير ، والتشابه يستدعي أمرين « كيف يكون شيء واحد متشابها ؟ » وقد قيل إن التشابه له اعتباران :

الأول : الوحدة وهي طبيعة المرزوق .

الثاني : الكثرة وهي جهة الدنيا والآخرة فالمرزوق متشابه بحسب هاتين الجهتين .

وقيل : يجوز أن يرجع الضمير في « وأتوا به » إلى المرزوق في الآخرة كما أن هذا من قوله تعالى : « هذا الذي رزقنا من قبل » إشارة

إليه والتشابه باعتبار المراده ، وعلى هذا يكون الضمير على حقيقتيه ليس فيه عدول عن المتن .

وقيل : ان المراد من قيل يعنى فى الجنة لأنهم يرزقون ثم يرزقون فإذا أتوا بطعام وثمار فى أول النهار فأكلوا منها ، ثم أتوا منها فى آخر النهار قالوا هذا الذى رزقنا من قبل يعنى أطلعنا فى أول النهار لأن لونه يشبه ذلك فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعما غير طعم الأول (١) .

وفى قوله تعالى : « فتلقي آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو للتواب الرحيم » أفرد الضمير فى قوله تعالى : « فتاب عليه » ولم يقل « عليهما » وحواء مشاركة له فى الذنب ، وقد قرنت معه فى النهى عن قرب الشجرة قال تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » وقرنت معه أيضا فى الاعتراف بالظلم أى ظلم أنفسهما قال تعالى : « قلا ربنا ظلمنا أنفسنا » وقد أسند إليه العصيان وحده فى قوله تعالى : « وعصى آدم ربه فغوى » قال القرطبي فى السرفى افراد آدم بالتلقى والتربية والعصيان هو أن أمر المرأة مبنى على الصون والستر ففى حرمه مستورة فأراد الله الستر لها ولذلك لم يذكرها فى المعصية ، وأيضا لما كانت المرأة تابعة للرجل فى غالب الأهر لم تذكر كما لم يذكر فتى موسى مع موسى فى قوله « ألم أقل لك » وقيل انه دل بذكر التوبة عليه أنه تاب عليهما إذ أمرهما سواء (٢) .

وأقول : ان افراد آدم بالتلقى والتوبة مع أنه مشترك فى الذنب مع حواء على سبيل التغليب غلب آدم بالذكر على حواء لأنها تابعة له ، أو أسند إليه أمر التقى والتوبة وحده لما يترتب على ذلك من

(١) تفسير القرطبي ٢٠٦/١

(٢) تفسير القرطبي ٢٧٧/١

عمارة الكون بالخلقة التي وعد بها ، ودوره في عمارة صفاته  
الكون أقوى وأظهر ، أو لأن أمر التلقي والتربية يترتب عليهما ارتفاع  
شأنه بالاصطفاء والنبوة وهي خاصة به عليه السلام .

وفي قوله تعالى : « والله ورسوله أحق أن يرضوه » نجد التنظيم  
القرآني قد عدل عن ذكر الضمير مثني لكونه راجعا الى الله ورسوله  
إلى ذكره مفردا فما السر في ذلك ؟

يقول الزمخشري : وإنما وجد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا  
الله ورضا رسوله ﷺ فكانا في حكم مرضى واحد كقولك أحسان زيد  
وأجماله نعثنى وجبر منى أو والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك (٣) .

وعلى الرأي الثاني ليس فيه عدول عن التثنية إلى الافراد إذ  
أن ضمير الافراد بمقتضى هذا الرأي هو الأصل لأنه يعود على لفظ  
انجالة ، وقد حذف الخبر من الثاني لدلالة الأول عليه ، والوجه الأول  
أقوى وأرجح لدلالة السياق عليه ، فهؤلاء الذين تنخير الآية عن حلفهم  
للمؤمنين كي يرضوهم هم جماعة من المنافقين كانوا يعتمدون الرسول  
ﷺ — بالأيذاء ويقولون عليه الأقاويل .

قال تعالى : « ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل  
أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم  
والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » التوبة : ٦١ .

وعلى منوال الآية السابقة قوله تعالى في شأن المنافقين أيضا :  
« وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون »  
أنور : ٤٨ ، وقوله سبحانه بعد ذلك بآيتين : « إنما كان قول المؤمنين

(٣) الكشف ١٩٩/٢ .

«إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون» (النور : ٥١) \*

فمن المعلوم أن الذي يتولى الحكم بينهم إنما هو رسول الله ﷺ. ويكون الحكم بما شرعه الله عز وجل ، فالحكم في الحقيقة ليس حكم الرسول فقط وإنما هو حكم الله ورسوله وإنما أسند الفعل « ليحكم » إلى ضمير الأفراد نادلالة على توحد الحكم ، وللاشعار بأن ما يحكم به الرسول ﷺ هو بعينه حكم الله \*

ومن العدول عن التثنية إلى الأفراد كذلك قوله عز وجل : «خاطبنا موسى وهارون عليهما السلام : « فأتيا فرعون فقولا أنا رسول رب العالمين » فقد وردت لفظ « رسول » مفردة مع أن ظاهر السياق يقتضي تثنيتهما \*

ذكر المفسرون سر أفرادها هنا في الشعراء ، وتثنيتهما في سياق آخر للقصة ذاتها في سورة طه : ٤٧ في قوله سبحانه : « فأتيا فقولا أنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل » \*

يقول الزمخشري : « غان قلت : هلا ثنى الرسول كما ثنى في قوله أنا رسولا ربك ؟ قلت : الرسول يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة فجعل ثم بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته ، وجعل ههنا بمعنى الرسالة فجازت التثنية فيه إذ وصف به بين الواحد والتثنية والجمع كما يفعل بالصفة بالمصادر نحو « صميم وزور » ، واستشهد الزمخشري على ذلك بقول الشاعر :

الكنى إليها وخير الرسو ل أعلمهم بنواحي الخبر (٤)

(٤) الكنى : أرسلني من الألوكة وهي الرسالة ، والمراد بخبير الرسل : خير الرسل بدليل إضافة خير إليه مع كونه معروفا ، وبدليل قوله : « أعلمهم » وإنما جاز التعبير عن الرسل بالرسول ، لأن المراد به الرسالة وهو على الوصف بالمصدر للمبالغة \*

واستشهد الزمخشري أيضا بقول كثير :

لقد كذب الواثسون ما فُتت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول  
أى ما أرسلتهم برسالة والدليل على أن « رسول » فى بيت  
« كثير » بمعنى رسالة من وجهين :

أحدهما : أنه لو كان « رسول » بمعنى « مرسل » لآدى إلى  
كسالم لا معنى له إذ يصير المعنى : ولا أرسلتهم بمرسل بخلاف  
ما أرسلتهم برسالة •

ثانيهما : أن أرسل يتعدى إلى المرسل بنفسه دون الباء بخلاف  
الرسالة فإن الفعل يتعدى إليها بالباء كما فى هذه الآية •

وذكر الزمخشري وجهًا ثانيًا لسر أفراد الرسول فى الآية فقال :  
ويجوز أن يوحد لأن حكمهما لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة  
واتحادهما لذلك وللأخوة كان حكما واحدا فكلتاهما رسول واحد •

وذكر الرازى بالاضافة الى ما نقله عن الزمخشري وجوها آخر :

أحدها : أن الرسول اسم للماهية من غير بيان أن تلك الماهية  
واحدة أو كثيرة ، والألف واللام لا يفيدان الا الوحدة لا الاستغراق ،  
بدليل أنك تقول : الانسان هو الضحك ولا تقول : كل انسان هو الضحك  
واذا ثبت أن لفظ الرسول لا يفيد الا الماهية وثبت أن الماهية محمولة  
على الواحد وعلى الاثنين ثبت صحة قوله تعالى : « انا رسول رب  
العالمين » •

ثانيا : المراد كل واحد منا رسول الله أفرد للدلالة على استقلال  
كل واحد منهما بالوصف وهو الارسال •

ثالثها : أنه إنما قال ذلك أى بالانفراد لا بلفظ التثنية لكونه هو الرسول خاصة (هـ) ، وهذا أضعف الوجوه المقدمة .

وذكر القرطبي وجه آخر غير ما ذكره كل من الزمخشري والرازي فقال : ويجوز أن يكون الرسول فى معنى الاثنين والجمع فتقول العرب : هذا رسولى ووكيلى ، وهذان رسولى ووكيلى ، وهؤلاء رسولى ووكيلى ومنه قوله تعالى : « فأنهم عدو لى » (٦) .

ويرى باحث معاصر أن « رسول » فى الآيتين لا تعنى سوى الشخص المرسل ، ولكن السياق هو الذى أدى الى تثنيتهما فى سورة طه وإفرادهما فى سورة الشعراء فالسياق الذى وردت فيه فى سورة طه يختلف عنه فى الشعراء ، فكل من الآيتين الكريمتين قد سبقت فى سياقها بإعلان الخوف من بطش فرعون وطيانه .

غير أن هذا الإعلان قد ورد فى سورة طه على لسان الرسولين — موسى وهارون — عليهما السلام — ومن ثم جاءت لفظة رسول مثناه ليعت الطمأنينة والثقة فى قلوبيهما واقتلاع جذور الخوف من نفسيهما مما قال تعالى : « قالوا ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » قال لا تخافا إنا معكما أسمع وأرى فأتياه فقولا إنا رسول ربك .. ( طه : ٤٥ ، ٤٧ ) .

أما فى سورة الشعراء فقد ورد الأخبار عن الخوف من فرعون وآله على لسان موسى — عليه السلام — وحده ، ومن ثم كان أفراد لفظة رسول فى تلك السورة تهدئة لروعه وتطميناً لمخاوفه عليه السلام . قال تعالى : « قال رب انى أخاف أن يكذبون ويمتنق صدرى ولا ينطقوا »

(٥) مفاتيح الغيب للرازي ١٠٩/٢٣ .  
(٦) تفسير القرطبي ٤٨١٠/٧ .

السائى فأرسل الى هارون • ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون • قال  
كلًا فاذهبوا بآياتنا أنا معكم مستمعون • فأتيا فرعون فقولوا أنا رسول  
رب العالمين « الشعراء : ١٢ - ١٦ (٧) » •

وفى قوله تعالى : « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم  
ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان » يقول الزمخشري : فان قلت :  
لم تثبت اليد فى « بل يداه مبسوطتان » ، وهى فى « يد الله مغلولة »  
مفردة ؟ قلت : ليكون رد قولهم وانكاره أبلغ وأدل على اثبات غاية  
السخط له ونفى البخل عنه ، وذلك أن غاية ما يبذله السخى من ماله  
بنفسه أن يعطيه بيديه جميعا فبنى المجاز على ذلك (٨) •

وقد ذكر الفخر الرازى إشكالا فى تفسير اليد فى حق الله تعالى  
بالنعمة قائلا : أن فسرتم اليد بالنعمة فنحن القرآن ناطق بإثبات  
اليدين ، ونعم الله غير محدودة كما قال تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله  
لا تحصوها » ( إبراهيم : ٣٤ ) ثم ذكر الجواب عن هذا الإشكال من  
وجهين :

الوجه الأول : أنه نسبة بحسب الجنس ثم يدخل تحت كل واحد  
من الجنسين أنواع لا نهاية لها فقليل : نعمته نعمه الدين ونعمة الدنيا،  
أو نعمة الظاهر ونعمة الباطن أو نعمة النفع ونعمة الدفع •

الوجه الثانى : أن المراد بالنسبة المبالغة فى وصف النعمة ،  
ألا ترى أن قولهم : لبيك ممناء إقامة على طاعتك بعد إقامة ، وكذلك  
« سمعديك » ممناء : مساعدة بعد مساعدة وليس المراد

(٧) أسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية للدكتور حسن طبل ١٢١

(٨) الكشف ٦٢٨/١ •



منه طاعتين ولا مساعدتين فكذلك الآية ، المعنى فيها أن النعمة متظاهرة متتابعة ليست كما ادعى من أنها مقبوضة ممتعة (٩) .

وجاءت جملة « غلت أيديهم » في مقابلة قولهم : السابق « يد الله مغلولة » لانشاء الدعاء عليهم بالبخل أو الفقر والعجز ، وذلك على طريقة العرب في انتزاع الدعاء من لفظ مشاكل كقول النبي — ﷺ « أسلم سلمها الله ، وغفار غفر الله لها » ، وقيل : « غلت أيديهم » حقيقة الأسرى في الدنيا ، والسوق على هذه الهيئة إلى نار جهنم في الآخرة (١٠) .

وفي قوله تعالى : « والتي أحصنت فرجها غنخنا فيه من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين » نجد أن المتقدم مريم وابنها عيسى عليه السلام فكان مقتضى الظاهر أن تثني الآية ، ولكنها أقردت لأن كلا منهما آية بالآخر فصارا آية واحدة .

أو نقول انه حذف من الأول لدلالة الثاني أو بالعكس أي وجعلنا ابن مريم آية وأمه كذلك على منوال قوله تعالى : « والله ورسوله أحق أن يرضوه » (١١) وقيل : ان المراد وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتهما آية للعالمين ، والذي يترجح عندي هو القول الأول وهو أن الآية فيهما واحدة .

ونظير الوجه الثاني في هذه الآية قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته » (١٢)

(٩) مفاتيح الغيب

(١٠) روح المعاني ١٨٠/٦

(١١) التوبة : ٦٢

(١٢) الحج آية ٥٢

فَقَوْلُهُ تَمْنَى اسْتَدَ الْفَعْلَ إِلَى ضَمِيرِ الْفَرْدِ هِجْ أَنْ الْمُتَقَدِّمَ لِثَنَانٍ  
وَهُمَا الرُّسُولُ وَالنَّبِيُّ ، وَهُمَا قَدْ عَطَفَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ بِالْوَاوِ  
وَالْعَطْفُ يَقْتَضِي الْمَعَابِيرَةَ خَفِيفٌ : إِنَّمَا الْفَرْدُ الضَّمِيرُ لِأَنَّ فِي الْكَلَامِ حَذْفًا  
تَقْدِيرُهُ : «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا إِذَا تَمْنَى وَلَا نَبِيَّ إِلَّا إِذَا  
تَمْنَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى : «وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ» .

مَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ كَلِمَةَ بَيْنَ تَدْخُلُ عَلَى الْمُثْنَى فَمَا غُصِقَتْ ، وَلَكِنْ تَسَلَّ  
وَجَدْنَاهَا فِي النَّظْمِ الْكَرِيمِ دَخَلَتْ عَلَى الْفَرْدِ فِي عِدَّةٍ مُوَاضِعٍ مِنْهَا قَوْلُهُ  
تَعَالَى : «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ» فَدَخَلَتْ بَيْنَ عَلَى  
ضَمِيرِ الْغَرِيَةِ الْفَرْدِ الْعَائِدِ إِلَى السَّحَابِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ .

قَبِيلٌ : أَمَا أَنْ يُرَادَ بِالسَّحَابِ الْجَنَسِ فَعَادَ الضَّمِيرُ إِلَيْهِ عَلَى حِكْمِهِ ،  
وَأَمَّا أَنْ يُرَادَ حَذْفُ مُضَافٍ أَيْ بَيْنَ قِطْعَةٍ فَإِنَّ كُلَّ قِطْعَةٍ سَحَابَةٌ (١٣)  
بِدَلَالَةِ التَّأْنِيفِ بَيْنَهُ أَيْ بَيْنَ قِطْعَةٍ ، أَيْ أَنَّهُ يَكُونُ قِطْعًا مُتَفَرِّقَةً ثُمَّ يَجْمَعُهَا  
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيُؤَلِّفُ بَيْنَهُ فَذَا هِيَ رُكَّامٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ ، فَذَا ثَقُلَتْ  
خَرَجَ مِنْهُ الْمَاءُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : «عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ» فَقَوْلُهُ  
«بَيْنَ ذَلِكَ» صِفَةٌ لِعَوَانٍ ، وَبَيْنَ الْفَتَا تَضَافُ لِثَنَيْنِ قِصَاصًا ، وَجَازًا  
فَنُتَضَفَ هُنَا إِلَى الْفَرْدِ ، لِأَنَّهُ يُشَارُ بِهِ إِلَى الْمُثْنَى وَالْمَجْمُوعِ كَقَوْلِ  
الشَّاعِرِ :

أَنْ لِلْخَيْرِ وَاللَّئِشْرِ مَدَى وَكَلَا ذَاكَ وَجْهٌ وَقَبِيلٌ

كَأَنَّهُ قَبِيلٌ بَيْنَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْفَارِضِ وَالْبَكْرِ .

وَقَدْ يَتَقَدَّمُ اثْنَانِ وَيَسْتَدُ الضَّمِيرُ بَعْدَ ذَلِكَ لِأَحَدِهِمَا كَمَا فِي قَوْلِهِ  
تَعَالَى : «وَإِذَا دَعَا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكَمْ بَيْنَهُمَا» (١٤) أَفْرَدَ الضَّمِيرَ

• (١٣) البدر المصون ٥/٢٢٥ .

• (١٤) البدر المصون ٤٨ : ٤٨ .

المسند إلى الفعل « ليحكم » وقد تقدمه اسمان وهما الله ورسوله : فهو كقوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه ، فقد عاد الضمير في قوله يرضوه إلى « رسوله » لأن حكم رسوله هو حكم الله فذكر الله تيميد لذكر رسول الله ، وإشعار بإظهار مكانته ﷺ ، ولا يليق بالأدب مع الله عز وجل أن يكون اسمه الأعظم مقحماً في النظم كما ذهب إلى ذلك الزمخشري في تفسيره (١٥) لنظير هذه الآية وهي قوله تعالى : « يخادعون الله والذين آمنوا » .

قيل : أن الخديعة هي من الخداع الذي أصله الاخفاء فمعنى خادع أي أنه موهم صاحبه بخلاف ما يريد به من المكروه ، وقيل : هو الفساد ، والخديعة بهذا المعنى لا تذون مع الله عز وجل ، لكنه تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ولذلك قيل في تأويل الآية أقوال متعددة منها أن خداع الله من حيث الصورة لا من حيث المعنى ، وقيل : لعدم عرفانهم بالله وصفاته ظنوه ممن يخادع وقال الزمخشري : « أن اسم الله تعالى مقحّم والمعنى : يخادعون الذين آمنوا ، ويكون من باب أعجبتني زيد وكرمه المعنى أعجبتني بكرم زيد ، وإنما ذكر زيد توطئة لذكر كرمه ، وجعل ذلك نظير قوله تعالى : « والله ورسوله أحق أن يرضوه » وقوله تعالى : « أن الذين يؤذون الله ورسوله وقد اعترض عليه السمين الحلبي في ذلك فقال : وهذا منه غير مرض فإنه إذا صح نسبة مخادعتهم إلى الله تعالى بالأوجه المتقدمة فلا ضرورة تدعو إلى زيادة اسم الله تعالى ، وأما « أعجبتني زيد وكرمه » فإن « لا أعجاب أسند إلى زيد بجهلته ، ثم عطف عليه بفتن صفاته تمييزاً

لهذه الصفة من بين سائر الصفات للشرف فصار من حيث المعنى نظيراً  
لقوله تعالى « وملائكته وكتبه ورسله ، وجبريل وميكال » (١٦) • أى  
أنه من باب عطف الخاص على العام •

ومن الصيغ المشكلة فى النظم القرآنى صيغة المثنى مع أن مدلولها  
مفرد كما فى قوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض وما  
فيهما من دابة وهم على جمعهم اذا يشاء قدير » (١٧) فقوله : « فيهما »  
يعود على السموات والأرض ، والسماء لا دواب فيها •

ومن هنا اختلف تأويل المفسرين فى تثنية الضمير فى قوله :  
« فيهما » فقيل : عبر بالمثنى وأراد المفرد كقوله تعالى « يخرج منهما  
اللؤلؤ والمرجان » (١٨) ، وانما يخرجان من الملح دون العذب وكقوله  
تعالى : « نسيا حوتهما » (١٩) قيل : الناسى هو فتى موسى عليه  
السلام وحده فقد نسى أن يعلم موسى بما رأى من حاله فنسب  
النسيان اليهما للصحة •

وكقوله تعالى « يا معشر الجن والإنس ألم ياتكم رسل منكم »  
وانما الرسل من الإنس لا من الجن ، ونقول فى هذه المواضع المشكلة :  
ان اللؤلؤ والمرجان وان كانا يخرجان من الملح فقط الا أنهما لما  
كان يلتقيان فى بعض الأماكن نسب الفعل اليهما قال تعالى : « مرج  
البحرين يلتقيان » ونسب النسيان لموسى وفتاه للصحة ، وفى آية  
الشورى ، لا يمنع أن يكون فى السموات خلق يدب ولكننا لا نعلمهم  
تعالى تعالى : « ويخلق ما لا تعلمون » وقيل : المراد الملائكة فمنهم من

(١٦) الدر المنصور ١/ ١٢٦ •

(١٧) الجاثية : ٢٩ •

(١٨) الرحمن آية ٢٢ •

(١٩) سورة الكهف آية ٦١ •

يمشي مع طيرانه ، وعلى هذا تكون للتثنية في الضمير على حقيقتها •  
أو أن الملائكة لهم ديب مع طيرانهم •

أفراد ضمير الغيبة مع عوده على مثنى :

كما في قوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » (٢٠) أفرد ضمير الغيبة في « يرفعه » مع أنه تقدم شيان مختلفان وهما الكلم الطيب والعمل الصالح ، قال السمين : وإنما وحد الضمير وإن كان المراد الكلم والعمل ذهابا بالضمير مذهب اسم الإشارة كقوله : عوان بين ذلك •

وقيل : إنما وحد الضمير لاشتراك كل من الكلم الطيب والعمل الصالح في صفة واحدة وهي الصعود • وقيل : إن الضمير يعود على الكلم الطيب أي العمل الصالح يرفع الكلم الطيب (٢١) •

وقيل إن ضمير النصب في يرفعه يعود على صاحب العمل أي يرفع صاحبه ومنه قوله تعالى : « وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره » (٢٢) فقوله : « من ثمره » الضمير مقدر مع أنه منسبوق بالنخيل والأعناب وهما شيان فكان من حق الضمير أن ينتهي ، ولذلك قيل : إن الضمير عائد على النخيل وقد اكتفى بذكر أحدهما لعدم الالتبس ، وقيل : الضمير يعود على « جنات » وعاد بلفظ المفرد لذهابه بالضمير مذهب اسم الإشارة وهو كقول رؤبة :

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه في الجلد توليع البقع

(٢٠) فاطر : ١٠ •

(٢١) الدر المنثور : ٤٦١ •

(٢٢) سورة يس : ٣٤ ، ٣٥ •

ويقول الزمخشري : أصله « من ثمرنا » فيتفق مع إسناد الأفعال  
في السياق إلى ثمر العظيمة في قوله : فجزنا وأنتينا ثم نقل الكلام  
من التكلم إلى الغيبة على طريق الالتفات ، والمعنى ليأتكوا مما خلقه  
الله من الثمر ، وعلى هذا يكون الضمير عائداً على الله تعالى . وفي قوله  
تعالى : « واستعينوا بالصبر والصلاة » وانها لتبيرة إلا على  
الخاصين » (٢٣) .

الضمير في « انها » يعود على الصلاة وأن تقدم شيئان لأنها  
أهم وأغلب حيث تتكرر وجوباً في اليوم خمس مرات وقيل : أن الضمير  
عائد إلى الاستعانة التي يدل عليها قوله تعالى « واستعينوا » عنى  
جنواً قوله تعالى : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » أى العدل المفهوم من  
« اعدلوا » ، وقيل أن الضمير عائد إلى جميع الأمور التي أمر بها  
بنو إسرائيل ونهوا عنها من قوله تعالى « اذكروا نعمتي التي أنعمت  
عليكم .. إلى قوله : واستعينوا » وهذا الوجه قال به صاحب الكشف  
وتبعه الفخر الرازي وجمع من المفسرين ، استحسنه الشيخ الطاهر بن  
عاشور ، حيث قال : « وهذا أوضح الأقوال ، وأجمعها » (٢٤) .

وقد نوه الفخر الرازي بقيمة هذا الوجه وكأنه في البلاغة من  
حيث الاختصار والإيجاز فقال : والعرب قد تفرغوا الشيء اختصاراً  
أو تقتصر فيه على الإيمان إذا وثقت بعلم المخاطب ، فيقول القائل :  
« ما عليها أفضل من فلان » يعنى الأرض ، ويقولون ما بين لابتيها أكرم من  
فلان يعنون المدينة (٢٥) .

(٢٣) سورة البقرة من الآية رقم ٤٥ .

(٢٤) التحرير والتنوير

(٢٥) تفسير الفخر الرازي ١/٢ : ٧١ .

ويرى المرحوم سيد قطب أن الصبر في قوله « وانها » ضمير  
إنسان (٢٦) ، والشيخ الشعراوي له في ذلك رأي وجيه حيث قال :  
« وانها » غل المقصود واحدة منهما الصلاة فقط أم الصبر ؟ نقول انه  
عندما يأتي أمران منضمات الى بعضهما لا تستقيم الأمور إلا بهما معا  
يكونان علاجاً واحداً واقرأ قوله تعالى « يحلفون بالله لكم ليرضوكم  
والله ورسوله أحق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين » (٢٧) فقال : يرضوه  
ولم يقل يرضوهم نفس التفسير السابق فلهذا : ليس لله حق ورسوله  
حق ، ولكن الله ورسوله يلتقيان على حق واحد .

وهنا نقف وقفة مع فضيلة الشيخ الشعراوي لنقول ان الصبر  
المفرد في قوله تعالى : « والله ورسوله أحق أن يرضوه » لا يرجع  
الى الحق المفهوم من قوله « أحق » حتى يكون مفرداً ، ولكن راجع  
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الصبر يعود الى أقرب  
مذكور ، وأقرب لأن رضا رسول الله ﷺ هو رضا الله تعالى .  
فلا فرق بين الارضائين فهما يلتقيان على رضا واحد ، « يعبر الى  
تمة كلام الشيخ الشعراوي فيقول : وكذلك قوله تعالى : « واذا  
رأوا تجارة أو لها انفضوا اليها وتركوك قائما » (٢٨) وكان المفروض  
أن يقال اليهما . ولكن التجارة والله لهما عمل واحد هو شغل المؤمنين  
عن العبادة والذكر (٢٩) .

ونقول : ان الصبر والصلاة شيان كل منهما مكمل للآخر فالصلاة  
في حاجة الى الصبر ، لأن المرء يخالف نفسه وهو في اللجوء الى

(٢٦) في ظلال القرآن ٦٩/١ .

(٢٧) سورة التوبة ٦٢ .

(٢٨) سورة الجمعة آية ١١ .

(٢٩) تفسير الشعراوي ٣١٤/١ .

الصلاة لأنه يقتطع زمنا من حياته لنوقوف بين يدي ربه لا يتخلف عنه  
 كل يوم وليلة ، فكان المراد : واستعينوا بالصبر على الصلاة لقوله  
 تعالى : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها » فكانت شيئا واحداً  
 والصبر أيضاً في حاجة إلى الصلاة فلها سر عظيم في تجلية الأخرين  
 والصبر على المصائب والبلايا ، وقد ورد في الحديث « أن النبي  
 ﷺ — كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وهذا القول يتناسب  
 مع السياق لأن المخاطب بهذا الأمر هم بنو إسرائيل لأن صرف الخطاب  
 إلى غيرهم يوجب تفكيك النظم ، ولهم صلاة كما للمسلمين صلاة غاية  
 ما في الباب أن صلاتهم على كيفية ، وصلاة المسلمين على كيفية أخرى  
 ولما أمرهم بالإيمان وترك الاضلال ، « كان شاقا عليهم عالج الله  
 تعالى هذا المرض بأمرهم بالصبر والصلاة أي بأن تصلوا صابرين »

#### الطلاق المثنى على المفرد :

في قوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بينهما  
 فيهن دابة » هنا يتبادر إلى الذهن سؤال وهو لم قال « فيهن »  
 دابة مع أن الدواب إنما هي في الأرض فقط ؟ قيل هو من إطلاق  
 المثنى على المفرد على منوال قوله تعالى « نسيا حوتهما » فإن الناس  
 هو يوشع فقط فتى موسى عليه السلام .

وقيل : أن النسيان نسب إلى كل من موسى — عليه السلام —  
 وفتاه يعني نسياً تفقد أمره ، فإنه كان علامة لهما على ما يطلبانه ، وقيل  
 تبسبى موسى أن يأمره بالانتيان به ، ونسى يوشع أن يفكره بأمره ، وعلى  
 هذا تكون نسبة النسيان لهما على ظاهرهما بدون تأويل (٣٠) .  
 وقيل في آية الثوري تأويل آخر وهو أنه سبحانه خلق في  
 السماء من يدب فإن من الملائكة من يمشى مع طيرائهم وهم ميثوثون  
 في السماء وقيل : الكلام على حذف مضاعف أي وما بث في أحدهما .

• عن ابن عباس (رضي الله عنهما) •

(٣٠) الدر المنثور ٤/ ٤٧٠ •



ومنه قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وهما إنما يخرجان من أحدهما ، يقول الزمخشري : « فإن قلت : لم قال منهما وإنما يخرجان من الملح فقط ؟ قلت : لما التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز أن يقال يخرجان منهما ، كما يقال يخرجان من البحر ولا يخرجان من ج. مع البحر ، وإنما يخرجان من بعضه ، ونقول : خرجت من البلد وإنما خرجت من محطة من محاله من دار واحدة من دوره (٣١) » .

وقيل : لا يخرجان إلا من ملتقى الملح والعذب وقال ابن عباس : « تكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر والصدف تفتح أفواهها للمطر وقد شاهده الناس ، ومنها : أن العذب في الملح كاللقاح كما يقال : الولد يخرج من الذكر والأنثى ، ولعل الأنسب بالسياق هو أن يكون اللؤلؤ والمرجان يخرجان من موضع التقاء الملح بالعذب بدل قوله في الآية السابقة « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » وقد سماهما بحرين على التخليب ، لأن العذب يقال له « نهر » .

وفي قوله تعالى : « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد » ان قلت : كيف هنى الفاعل مع أنه واحد وهو مالك خازن النار ؟ قيل هنا ان : تنبيه الفاعل هنا التأكيد فكانه قال : ألق ألق على من ألق قول امرئ القيس :  
قفنا نبت ، أو أن العرب أكثر ما يوافق الرجل منهم اثنين ، فكثرت على ألسنتهم خطابهما فقالوا خليلى ، وصاحبي ، وقفنا ، ونحوهما .

وقيل : الفاعل مثنى وهما الملكان اللذان مر ذكرهما بقوله : « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » (٣٢) وقيل : العرب تخاطب الواحد مخاطبة الاثنين تأكيدا كقول الشاعر :

(٣١) الكشف ٤٥/٤

(٣٢) فتح الرحمن ص ٥٢٢

فان نزع راني يابن عفان ازرديج وان تدعاني احم عرضا ممنا

وقال آخر :

وقلت لصاحبي لا تحبسانا بنزع اهلولة واجدز شيجا

يتنوع الأسلوب القرآني فيأتي أولا بصيغة المثني ثم يعدل عنه إلى الافراد وذلك لغرض بلاغي يقتضيه المقام وذلك في قوله تعالى : « فأتياهم فقولا انا رسولا ربك فارسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى .. الى قوله قال فمن ربكما يا موسى » (٣٣) •

ففي قوله : « وجئناك بآية » بالافراد وهما آيتان اذ كان معه آية العصا وآية اليد ، وقبل ذلك في نفس السورة جمع الآية فقال تعالى : « اذهب أنت واخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى » فكيف الجمع بين هذه المعاني ؟

نقول : ان العصا واليد وان كانتا آيتين على الاجمال آيات متعددة عند التفصيل ، فان انقلاب العصا حيوانا آية ، ثم أنها كانت صغيرة تهتر كأنها جان ثم صارت كبيرة وهذه آية أخرى ، وصبرورتها ثعبانا آية أخرى ثم انقلابها خشبة آية أخرى •

وكذلك اليد بياضها آية ، وشعاعها آية أخرى وزوالها آية أخرى فهذا هو سر الجمع في هذا السياق أما افرادها في قوله تعالى : « قد جئناك بآية من ربك » فان القصد من الآية هنا الجنس ولم يتوجه القصد إلى العدد •

## الفصل الثامن

### الافراد والجمع

وقد يذكر وصف جمع التكسير مفردا ، وتكرر الآية ويوصف فيها نفس الجمع جمعا مؤنثا لما السر في المغايرة بين الوصفين بالافراد والجمع ؟ وذلك في قوله تعالى في البقرة « وقالوا لن تمسنا النار الا اياما معدودة » وفي آل عمران : « وقالوا لن تمسنا النار الا اياما معدودات » .

والجواب عن ذلك هو أن المغايرة بين الوصفين من التقن في التعبير بمراعاة الجمع بين الأصل والفرع اذ الأصل في الجمع بالكلف والتاء اذا كان واحده مذكرا أن يقتصر في الوصف على تأنيثه مفردا لقوله تعالى : « فيها سرر مرفوعة » وقد يأتي سرر مرفوعات على الجمع فهو فرع عن الأول ، فذكر في البقرة الوصف مفردا على الأصل ، وفي آل عمران الوصف جمعا على الفرع .

وفي قوله تعالى : « ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم » ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين « ( النساء : ١٣ ، ١٤ ) فجمع « خالدين » مع المؤمنين أهل الطاعة وأفردها مع أهل المعصية فما السر في ذلك ؟

قيل : لأن أهل الطاعة أهل الشفاعة فلما كانوا يدخلون هم والمشفوع لهم ناسب ذلك الجمع ، والعاصي لا يدخل به غيره النار فناسب ذلك الافراد وفي الآية أيضا نجد افراد الضمير وجمعه في قوله

تعالى : « يدخله » وخالدين مراعاة للفظ « من » ومعناها فقد روعي  
أولا اللفظ في قوله : يطع ويدخله حيث أن « من » لفظها مفرد .

وروعي ثانيا معنى « من » فجمع في قوله : « خالدين » ومراعاة  
اللفظ أولا ثم مراعاة المعنى ثانيا يتفق مع ما درج عليه العرب في  
كلامهم وما استقر في قواعدهم ففي قوله تعالى « فخلقنا المسنة عظاما  
فكسونا العظام لحما » نجد أفراد العظام في الموضعين وهي شراة  
ابن عامر وأبى بكر عن عاصم ، وقرأ المسلمي وقتادة والأعرج والأعمش  
ومجاهد وابن محيصن بأفراد الأول « عظاما » وجمع الثاني « عظما »  
وقرأ أبو رجاء وإبراهيم بن أبي بكر ومجاهد أيضا بجمع الأول وأفرد  
الثاني على العكس فقرأه الأفراد في الموضعين راعت اللفظ فقط في اللفظ  
« انسان » وسلاطة ونطفة » ومن قدم الأفراد على الجمع نظر إلى  
اللفظ أولا ثم عقب بالجماعة لأنها هي الغرض لأن المقصود من خلق  
الانسان من سلاطة من طين وهو آدم تكثير ذريته وهم جميع بنى  
آدم ، ومن عكس بادر إليها إذ كانت هي المقصودة ثم عاد إلى اللفظ  
ومراعاة اللفظ أولا والمعنى ثانيا أجرى على قوانينهم ، ألا تراك تقول  
من قام وقعدوا آخرتك لانصرافه من اللفظ إلى المعنى ، وضعف : من  
قاموا وقعد آخرتك ، لأنك قد أثبت بالجمع على المعنى وانصرفت عن  
اللفظ ، ومراجعة اللفظ بعد الانصراف عنه تراجع وانتكاس (١) .

وفي قوله تعالى : « ومنهم من يستمع إليك .. » (الأنعام : ٢٥)  
وفي آية أخرى : « ومنهم من يستمعون إليك .. » (يونس : ٤٢) وقوله  
« ومنهم من ينظر إليك » نلاحظ أنه راعى لفظ من في الآية الأولى  
فأفرد الفعل أي ما أسند إليه ، وفي الآية الثانية يراعى معنى « من »

(١) تحفة الاختراف القسم الثاني من ٦٦٦ .

الجمع أى أتى بضمير الجمع مسنداً للفعل ، وفى الآية الثالثة راعى لفظ « من » مفرد . ما السر البلاغى للأفراد والجمع فى هذه الآيات ؟

قيل : إن السر فى الأفراد فى الآية الأولى هو مراعاة قلة عدد المستمعين فنزلوا منزلة الواحد لاتحادهم فى العناد ، واجتماعهم على التشرك ، وفى الآية الثانية : نزلت فى عدد كثير فتناسب الجمع ، فأعيد الضمير على معنى « من » وفى الآية الثالثة : أفرد الفعل أى جاء مع الفعل بضمير المفرد قيل : لأن النظر لا يكون الا فى جهة واحدة وهى الجهة المقابلة للرائى ، وأما الاستماع فإنه ليس مقصوراً على جهة المقابلة ، وإنما يكون من جميع الجهات ، وقد رد هذا الوجه بأن النظر بالنسبة للجمع والأفراد فى الآية إنما هو باعتبار الأفراد لا باعتبار الجهات ، فتعدد الجهات الصالحة لأحد الفعلين لا يؤثر إذا كان المستمعين والناظرون متحدتين ، ولأن الجمع والأفراد هنا سواء لأن « من » الموصولة فيهما هو من يصدر منهم الفعل . هم عدد ، وليس الناظر شخصاً واحداً .

ويرى الطاهر ابن عاشور أن العدول عن الجمع إلى المفرد فى الآية الثانية هو التفتن وكراهية إعادة صيغة الجمع لقلها لاسيما بعد أن حصل فهم المراد ، أو لعل اختلاف الصيغتين للمناسبة مع مادة فعلى يستعمل « ينظر » ففعل ينظر لا ثلاثته صيغة الجمع لأن حروفه أنقل من حروف يستعمل فيكون العدول استقصاء لقتضى الفصاحة (٢) .

وما قاله الشيخ ابن عاشور من عدم ملائمة الفعل لصيغة الجمع لا يتلاءم مع ما عليه كثير من الآيات التى جاء فيها الفعل بصيغة الجمع ، ولندكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى : « هل ينظرون

« لا أن يأتيهم الله » وقوله تعالى : « وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » وقوله تعالى « فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم .. » وقوله : « ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » وقوله : « ينظرون من خلف حقي » • وقد يكون السر في اختيار صيغة الأفراد مع الفعل « ينظر » لإرادة استقلال كل واحد بالنظر إلى رسول الله والتوسم في سمته الشريفة ، ودلائل نبوته الواضحة في جميع أحواله ... الخ •

ومن الجمع والأفراد ، ومنه إلى الجمع فيكون الأفراد بين جميعين أفراد السمع بين جمع الأبصار والقلوب في قوله تعالى : « حتم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » ( البقرة : ٧ ) . تعددت آراء المفسرين حول السر في أفراد السمع وجمع الأبصار فذكر الزمخشري عدة آراء فقال : « وحد السمع كما وحد البطن في قوله « كلوا في بعض بطنكم تغفوا » (٣) — يفعلون ذلك إذا أمن اللبس فإذا لم يؤمن كقولهم : فرسهم ويؤبهم وأنت تريد الجمع وغشوه (٤) » •

يفهم من هذا الرأي أن هذا من وضع الواحد موضع الجمع يعني أن السمع وضع موضع السماع ، وعلى هذا يكون المراد بالاسماع محلها وهي الأذان فيكون المعنى : حتم الله على آذانهم السامعة فلا يصل إلى قلوبهم من جهتها إدراك كما أطلق الشاعر : البطن والمراد البطن ، والمراد من قول الشاعر اقتنعوا بالقائل من الطعام تغفوا عن تناول الحرام •

(٣) تمام البيت : • فان زمانكم زمن خميس •

(٤) الكشف ١٦٤/٨ •

وقد اشترط الزمخشري لصحة هذا الاستعمال شرطاً يجب مراعاته وهو أمن اللبس كما في سمعهم ويطنهم فلا يخفى أن لكل واحد سمعاً يطمنا بخلاف الثوب والفرس فلا يؤمن معه اللبس إذا استعمل الواحد وأريد الجمع ومن ثم لا بد من النص على الجمع إذا أراد المتكلم استعماله فيقال : أثوابهم وأفراسهم •

وذكر الزمخشري رأياً آخر في سر أفراد السمع فقال : ولك أن تقول السمع مصدر في أصله ، والمصادر لا تجمع غلط الأصل ، ولهذا جمع الأذن في قوله تعالى : « وفي آذاننا وقر » لأنه اسم لا مصدر •

وعلى الرأيين السابقين يكون المراد من السمع الآذان ، وذكر الزمخشري رأياً ثالثاً مؤداه هو أن السمع قد لا يكون المراد منه الآذان ، وإنما المراد منه صفة السامع وعلى هذا لا بد من تقديره : صاف محذوف فيقال : وعلى حواس سمعهم •

وذهب صاحب تفسير المنار إلى أن السر في أفراد السمع وجمع القلوب والأبصار هو توحيد مدركات السمع ، وتعدد مدركات القلوب والأبصار حيث يقول : « والذي أراه أن المقول والأبصار تتصرف في مدركات كثيرة فكانها صارت بذلك كثيرة فجمعت ، أما السمع فلا يدرك إلا شيئاً واحداً هو الصوت ومن ثم أفرد » (٥) •

وإذا أمعنا النظر في هذه الآراء فأننا نجد أنها غير مسلمة في القياس العقلي فإذا كان السبب في أفراد السمع هو « أمن اللبس » على حد تعبير الزمخشري ، فلماذا لم تفرد القلوب والأبصار لهذا السبب ذاته ، فأمن اللبس قائم مع القلوب والأبصار ، وإذا كان مرد

(٥) تفسير المنار ج ١ / ١٤٤ ، ١٤٥ •

هذا الافراد هو كون السمع مصدرا في الاصل فان البصر أيضا مصدر فلماذا لم يفرد مثل السمع ؟

وما قاله صاحب تفسير المنار فيه نظر ، لأن الأصوات أو مدركات السمع تختلف وتتعدد من حيث خصائصها وتتنوع مصادرهما شأنها في ذلك شأن المرئيات أو مدركات البصر .

وفي النظم القرآني ألفاظ وردت على الجمع ولم ترد مفردة بينما نجد لفظاً مرادفاً لها قد ورد مفرداً ولم يرد جمعا وهما لفظتا : « الرؤيا » و « الحلم » فالرؤيا وردت في القرآن سبع مرات كلها في الرؤيا الصادقة ولم ترد الا بصيغة المفرد ، في قوله تعالى « وناديته أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين » (الصافات ١٠٤ ، ١٠٥) ورؤيا يوسف اذ قال له أبوه : « يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك » ( يوسف : ٥ ) .

وعن رؤيا ملك مصر قوله تعالى « يا أيها الملا أفتوني في رؤياي أن كنتم للرؤيا تعبرون » وفي سياق صدق رؤيا يوسف وتحققها يقول تعالى « ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أيت هذا بتأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا » ( يوسف : ١٠٠ ) .

ورؤيا المصطفى عليه الصلاة والسلام في الاسراء « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس » ورؤياه عليه الصلاة والسلام في الافتتاح قال تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون » واستعمل القرآن لفظ « الأحلام » مجيء ثلاث مرات هي في قوله تعالى : « قالوا أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » ( يوسف : ٤٤ ) وفي قوله تعالى : « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء »



ول هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » ( الأنبياء : ٥ ) فمما  
السر البلاغى فى هذا الاستعمال ؟

نقول — وبالله التوفيق — ان حقيقة الأصغاث انما هى أخلاط  
النبات أى حزم النيات المشتبهة على أنواع كثيرة متباينة منه ، وقد  
استعملت هذه اللفظة للتخاليط والأباطيل الواقعة فى الرؤيا الواحدة  
نقول : شبت تخاليط الأحلام وأباطيلها الملتفات بما جمع من أخلاط  
النبات وحزم والجامع الاختلاط من غير تمييز بين جيد ورسى ، ثم  
استعملت الأصغاث فى موضع الأباطيل ، فلما كان الحلم مشتملا على  
هذه الأباطيل الملتفة والتخاليط المتعددة جمع الحلم على أحلام . وهن  
المعلوم أن الرؤيا والحلم فى اللغة واحد .

يقول صاحب النهاية : الرؤيا والحلم عبارة عما يراه النائم فى  
النوم من الأشياء نكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير وأشياء  
الحسن وغلب الحلم على ما يراه من الشر والأشياء القبيح ، ولا شك  
أن الحلم فيه دلالة على الخلط والتهوش بحيث يرى النائم رؤى متعددة  
حسنة أو قبيحة ولا يمكنه أن يميز هذه الرؤى بعضها عن الآخر ، فمنها  
ما يكون حسنا ومنها ما يكون قبيحا أو شرا ، فهى مجموعة رؤى غير  
متجانسة ولا تناسب بينها ، ولذلك يصعب على الرائي بعد استيقاظه  
تذكرها فقد يتذكرها ويتمكن من جمع شتاتها وتخليطها ، وهذا  
نصادر .

وما رآه الملك رؤيا صادقة وليست أحلاما ، ولكن المسام جعلوا  
ذلك الرؤيا التى رآها الملك فى منامه أصغاث أحلام الا لتمهيد عذرهم  
فى أنهم غير عالمين بها مما يدل على أن الرؤيا والحلم وان كانتا فى  
أصل اللغة واحدا الا أن هناك فرقا بينهما فى الاستعمال فنجد فروقا

تحقيقه بين اللفظتين تفهم من السياق ويقتضيها المقام ، وقد ألمح إليه ذلك انجازه في البيان والتبيين .

وقد يستخف الناس الفاظا ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها ألا ترى أن الله تبارك وتعالى — لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السخب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام ، والعامه وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث (٦) .

يتضح من كلام الجاحظ أن كلام الله — عز وجل — ليس كسائر كلام البشر — وإن كان من جنس كلامهم أي لغتهم التي ينطقون بها لأنه كلام المعلم أنخبير المحيط ببواطن الأدور وخفاياها فيضع اللفظة المناسبة في مكانها وإلو أنك حاولت أن تجهد نفسك بوضع لفظة أخرى مكانها مرادفة لها وتؤدي نفس معناها لما استطعت لأن الكلمة تفيض بالايحاءات ودقائق المعاني من خلال نظمها ، ولا نظم أدق وأجل من نظم القرآن الكريم .

هذا عن الأحلام وسر جمعها أما عن الرؤية وسر أفرادها فانهت لوضوحها وتناسب أحداثها في عين الرائي لها في المنام تتميز وتسير تسيجا واحدا وطريقا مستقيما واضحا ، لأنها من الله ، والحمد من الشيطان (٧) .

(٦) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠ .

(٧) فقد ورد في الحديث الشريف : الرؤيا من الله والحلم من الشيطان فإذا رأى أحدكم شيئا يكرمه فلينبث عن يساره ثلاث مرات وليستعذ بالله من شرها — البخاري كتاب الطب — باب النفث في الرقية ومسلم كتاب الرؤيا ١١٨/٥ والترمذي كتاب الرؤيا باب إذا رأى أحدكم في المنام ما يكرمه ٣١/١١ .

( ١١ - البلاء )

ولا شك أن طرق الشيطان متعددة قال تعالى: «وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيته» •

وجاء الله الزمخشرى ذكر وجهها آخر في سر جمع الحلم عن أحلام فيقول: فان قلت: ما هو الا حلم واحد فلم قالوا أضغاث أحلام فجمعوا؟ قلت: هو كما تقول: فان يركب الخيل ويلبس عمامة الخبز ان لا يركب الا فرسا واحدا وما له الا عمامة فردة تريد في الوصف فهؤلاء ايضا تريدوا في وصف الحلم بالبطان فجعلوه أضغاث أحلام، ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا غيرها •

ونقول: لا داعي لتكاف ذكر هذا الوجه لأن الجمع وسر التعبير به واضح من خلال اجراء استعارة الأضغاث لأباطيل المنامات وتخليطها وهي متحققة في رؤيا واحدة بحسب أنها متراكبة من أشياء كل واحد منها حلم فكانت أحلاما •

وقد يقع في النظم الكلام مفردا في اللفظ ومعناه جمع، وهذا كثير، لأنه قصد به الجنس أو قصد به الجزء مثل قوله تعالى: «والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون» (٨) ولذلك روعى معناه وجمع في قوله تعالى «أولئك هم المتقون» كما روعى معنى «من» أيضا في الآية السابقة في قوله تعالى: «فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق اذ جاءه اليه في جهنم مثوى للكافرين» فقد روعى معنى «من» في قوله «للكافرين» فان الكافرين ظاهر واقع موقع المضمرة لتسجيل صفة الكفر عليهم اذ الأصل اليه في جهنم مثوى لهم •

وتقيل: المراد بالذي في قوله تعالى: «والذي جاء بالصدق» هو

واحد بعينه وهو محمد ﷺ ولكن لما كان أتباعه من الصحابة والتابعين قد صدقوا ما جاء به ﷺ من عند الله وآمنوا به أعتبر ذلك فجمع فقال « أولئك هم المتقون » كقوله : « ولقد آتينا موسى الكتاب نعلمهم يهتدون » أراد موسى وقومه ولذلك جمع فقال « لعلهم يهتدون » أي قومه ، لأنهم المطلوب منهم الهداية ، وأما موسى عليه السلام فمهتد ثابت على الهداية ، وقد يكون موسى داخلا معهم في رجاء الهداية أي المزيد منها والمداومة عليها ، أو من باب التهيج والالهاب .

وقد يكون المراد من قوله : « والذي جاء بالصدق وصدق به » الرسول ﷺ ويشترك معه كل المرسل قبله في هذه الصفة ، كما يشركه فيها كل من دعا إلى هذا الصدق وهو مقتنع به مؤمن بأنه الحق يشارك قلبه لسانه فيما يدعو إليه ، وهذا معنى عام وشامل لمسيرة البشرية من مبدئها إلى منتهاها ، ولذلك كان هذا الوجه أولى بالترجيح ، ويتوسع المولى عز وجل في بيان ما أعدده للمعتقين من جزاء فيقول : « لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين » وهو تعبير جامع يشمل كل ما يخطر للنفس المؤمنة من رغائب ، ويقرر أن هذا لهم عند ربهم ، فهو حقهم الذي لا يخيّب ولا يضيع جزاء لهم على أحسانهم (٩) .

ومنه قوله تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » وأنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءها قال يا ليتني بكى وبنيك بعبد المشرقين فبئس القرين » (١٠) .

فضميرا النصب في قوله تعالى : « وأنهم ليصدونهم » عائذون على « من » من حيث معناها راعي لفظها أولا فأفرد في « له » وراعي

(٩) في ظلال القرآن ٣٠٥٠/٥ ، ٣٠٥١ .

(١٠) سورة الزخرف آية ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ .

معناها فجمع في قوله « وانهم ليمحدونهم » ثم رجع الى اللفظ ثانية فأفرد في قوله : « حتى اذا جاءنا قال » .

وفي قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم » قرأ عاصم « المجالس » جمعة باعتبار أن لكل واحد منهم مجلسا ، والباقيون بالافراد اذ المراد مجلس الرسول ﷺ ، ولا تعارض بين القراءتين فهو مجلس واحد باعتبار ومجالس باعتبار آخر ، فعلى قراءة الافراد وأن المراد به مجلس رسول الله ﷺ فان الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتضامون فيه تنامسا على القرب منه وحرصا على استماع كلامه وكان بعضهم يكره أن يضيق عليه في المكان .

وقد رأى ﷺ الكراهة من الضيق على وجوههم فأمرهم ﷺ أن يوسعوا دائرة المجلس ويفسح بعضهم لبعض ، وقراءة الجمع باعتبار تعدد الجالسين فان لكل جالس مجلسا على حدة أى موضع جلوس .

ويؤيدها ما جاء في سبب النزول فقد ورد أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يجلس يوم الجمعة في الصفة وفي المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا الى المجالس فغاموا حيال النبي ﷺ ينتظرون أن يوسع لهم فعرّف رسول الله ﷺ ما يحملهم على القيام وشق ذلك على الرسول فقال لمن حوله من غير أهل بدر قم يا فلان ثم يا فلان فلم يزد بينهم بعدة نفر الذين هم قيام بين يديه ، وشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرفت الكراهية في وجوههم ، وطمعن المنافقون في ذلك ، وقالوا : أنستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ؟ والله ما رأينا قد عدل على هؤلاء ، ان قوما أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم فأقامهم وأجلس من أبطل عنه فنزلت هذه الآية يوم الجمعة .

وهذه الرواية — ان صحت — لا تتنافى مع الأحاديث الأخرى التي تنهى أن يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه فلعل هذا الصنيع من رسول الله كان له اختياره في هذا المقام ، وهو يتفق مع ما قرره عليه السلام في قوله : « أنزلوا الناس منازلهم » فان أهل بدر كانت لهم منزلة خاصة عند رسول الله ﷺ وهو القائل : « نعل الله اطلع الى أهلي بدر فقال : اعملوا ما تشئتم فقد وجبت لكم الجنة ، أو قد غفرت لكم » .

والقراءات القرآنية المتواترة تلتقي حول معنى واحد ففي قوله تعالى « والذين هم بشهادتهم قائمون » (١١) قرأ حفص بشهاداتهم جمعاً والباقيون بالافراد فالجمع لإرادة تعدد أنواع الشهادة بالافراد لإرادة الجنس وهو تحته أنواع .

ومن وصف المفرد بالجمع لسر بلاغى قوله تعالى : « انا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج » (١٢) فأمشاج جمع وهو صفة للنطفة لأنها على معنى الجمع كقوله تعالى : « رفرف خضر » وكقوله « برمة أعشار » أو « برد أكباش » فقد جعل كل جزء من النطفة نطفة وهذا الاعتبار هو الذى سوغ وصفها بالجمع .

وقد يتقدم ذكر لفظ عام يصلح للافراد والمثنى والجمع كلفظ « من » الموصولة فلفظها مفرد ، ولكنها تحتل معنى الجمع أيضاً ثم يأتى النظم القرآنى بعد ذلك فيحمل بعضه على اللفظ ويحمل بعضه الآخر على المعنى ، كما فى قوله تعالى : « ومن يهد الله فهو المهتد ومن

(١١) سورة الماعز الآية ٣٣ .

(١٢) سورة الانسان الآية ٢ .

يضلّ فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة جميعاً وبكماء وصفا « (١٣) » .

فحمل على لفظ « من » في قوله تعالى : « غير المهتد » فافرد ، وحمل على معنى « من » الثانية في قوله : « ومن يضلّ فلن تجد لهم » فجمع . ووجه المناسبة في ذلك — والله أعلم — أنه لما كان الهدى شيئاً واحداً غير متشعب السبل ناسب التوحيد ، ولما كان الضلال له طرق نحو : « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ناسب الجمع ، وهذا الحمل الثنائي مما حمل فيه دلي المعنى وإن لم يتقدمه حمل على اللفظ ومثله قوله تعالى : « ومنهم من يستمعون اليك » ، ويمكن أن يكون الذي سوغ هذا وحسنه هنا كونه تقدمه دلي على اللفظ ، وإن كان في جملة أخرى غير جملته .

وفي قوله تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله جفا كأنهم بنيان مرصوص » نجد الأفراد في قوله تعالى : « صفا » وقد عاد عليه الضمير بالجمع لمراعاة المعنى لأنه جمع في المعنى ، وإنما أثر النظم القرآني الأفراد دون الجمع لأن المجاهدين مهما كثروا فإنهم يجب عليهم أن يكونوا قوة واحدة على قلب رجل واحد وأن يكونوا متآزرين متعاونين كالبناء المتمايك الذي تجتمع لبناته ويشد بعضها بعضاً ففيه دلالة على وحدة الصف ووحدة الهدف .

وفي قوله تعالى : « يا أيها النبي إنا أحلينا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك » .

ولا شك أن طرق الشيطان متعددة قال تعالى : « وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيته » •

وجاء الله الزمخشري ذكر وجهها آخر في سر جمع الحلم عن أحلام فيقول : فإن قلت : ما هو إلا حلم واحد فلم قالوا أضغاث أحلام فجمعوا ؟ قلت : هو كما تقول : فإن يركب الخيل ويلبس عمامة الخبز أن لا يركب إلا فرسا واحدا وما له إلا عمامة فردة تريد في الوصف فهؤلاء أيضا تريدوا في وصف الحلم بالبطان فجعلوه أضغاث أحلام ، ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا غيرها •

ونقول : لا داعي لتكلف ذكر هذا الوجه لأن الجمع وسر التعبير به واضح من خلال إجراء استعارة الأضغاث لأباطيل المنامات وتخليطها وهي متحققة في رؤيا واحدة بحسب أنها متراكبة من أشياء كل واحد منها حلم فكانت أحلاما •

وقد يقع في النظم الكلام مفردا في اللفظ ومعناه جمع ، وهذا كثير ، لأنه قصد به الجنس أو قصد به الجزء مثل قوله تعالى : « والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون » (٨) ولذلك روعى معناه وجمع في قوله تعالى « أولئك هم المتقون » كما روعى معنى « من » أيضا في الآية السابقة في قوله تعالى : « فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين » فقد روعى معنى « من » في قوله « للكافرين » فإن الكافرين ظاهر واقع موقع المضمحل لتسجيل صفة الكفر عليهم إذ الأصل أليس في جهنم مثوى لهم •

وتقيل : المراد بالذي في قوله تعالى : « والذي جاء بالصدق » هو



نلاحظ في هذه الآية المراد جمع الخال وجمع خالات وعمات ،  
 ما السر في هذه المغايرة ؟ السر - والله أعلم - أن لفظ العم والخال  
 بالتذكير اسم جنس وهو في معنى الجمع بدليل الاستثناء منه في قوله  
 تعالى : « والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا  
 الصالحات » . أما العمة والخالة فليستا اسم جنس ولذلك جمعا .  
 ويقول الشيخ زكريا الأنصاري : أفرد العم والخال وجمع العمات  
 والخالات ، لأن العم والخال بوزن مصدرين وهما الضم والمسال ،  
 والمصدر يستوي فيه المفرد والجمع بخلاف العمة والخالة ، ولا يرد  
 على ذلك جمع العم والخال في قوله تعالى في سورة النور « أو بيوت  
 أعمامكم أو بيوت أخوالكم » ، لأنهما ليسا مصدرين حقيقة فاعتبر هنا  
 حقيقتهما فأفردا وثم شبههما فجمعا (١٤) .

والنظم القرآني يأتي بالآية مفردة في سياق ويأتي بها جمعا في  
 سياق آخر لاختلاف المقامين ففي قوله تعالى في سورة سبأ « إن في  
 ذلك لآية لكل عبد منيب » أفرد لفظ « آية » لوقعها في سياق الحديث  
 عن بعث الموتى ولحياتهم من قبورهم ولا شك أن القادر على هذا هو  
 الله - سبحانه - وحده فغلب ذلك التوحيد وهو الاتيان بلفظ الآية  
 مفردة وجمعها في نفس السورة في آية أخرى في قوله تعالى : « إن  
 في ذلك لآيات لكل صبار شكور » لأن هذه الآية وردت في سياق  
 الحديث عن قوم سبأ وهم قد تفرقوا في البلاد ومزقوا كل ممزق كما  
 أخبر عنهم القرآن باسم الإشارة في « ذلك » يعود إلى قبيلة سبأ  
 التي تفرقت حتى ضرب بهم المثل فقيل « تفرقوا أيدي سبأ » فلم  
 صارت هذه القبيلة فرقا شتى تلعب الجمع .  
 (١٤) فتح الرحمن يكشف ما يختص في القرآن من الآيات

يُجَدُّ عَلَى الْجَمْعِ لِأَنَّ الْوَاحِدَ بِمَا هُوَ وَاحِدٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَلَى أَرْجَائِهَا  
فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ بَلْ فِي أَوْقَاتٍ ، وَالْمُرَادُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمَلَائِكَةَ عَلَى  
أَرْجَائِهَا لَا أَنَّهُ مَلَكٌ وَاحِدٌ يَتَنَقَّلُ عَلَى أَرْجَائِهَا فِي أَوْقَاتٍ (١٥) .

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » (١٦)  
قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ هُنَا وَفِي الْمَعَارِجِ « لِأَمَانَتِهِمْ » بِالْأَفْرَادِ ، وَالْبَاقُونَ - وَهُوَ  
الَّذِي عَلَيْهِ الرَّسْمُ الْعُثْمَانِيُّ بِالْجَمْعِ ، وَهَذَا فِي الْمَعْنَى وَاحِدٌ ، لِأَنَّ  
الْقُرَاءَاتِ السَّبْعَ الْمُتَوَاتِرَةَ تَلْتَقِي دَائِمًا حَوْلَ مَعْنَى وَاحِدٍ ، وَلَكِنْ قِرَاءَةُ  
لِهَا وَجْهٌ غَيْرُ قَرَأَ بِالْأَفْرَادِ رَاعَى كَلِمَةَ الْعَهْدِ فَاحْتِجَ لِقِرَائَتِهِ بِالْأَفْرَادِ  
الْعَهْدَ ، وَهَذَا قَرَأَ بِالْجَمْعِ رَاعَى إِجْمَاعَ الْقُرَاءِ عَلَى جَمْعِ الْإِمَانَةِ فِي قَوْلِهِ  
تَعَالَى : « إِنْ أَنْتَ بِأَمْرِكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا » (١٧) .

وَلَكِنْ الْمَعْنَى فِي الْقُرَاءَتَيْنِ وَاحِدٌ لِأَنَّ قِرَاءَةَ الْأَفْرَادِ يَرَادُ مِنْهَا  
الْجِنْسُ وَهُوَ يَشْمَلُ أَفْرَادَ الْإِمَانَةِ كُلِّهَا ، وَقِرَاءَةُ الْجَمْعِ يَرَادُ مِنْهَا الْجَمْعُ  
الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْجِنْسُ ، وَلَكِنَّهُ يَزِيدُ عَلَيْهِ بِإِفَادَةِ تَنَوُّعِ الْإِمَانَةِ وَجَمْعِهَا  
شَامِلٌ لِكُلِّ أَنْوَاعِهَا وَلِذَلِكَ كَانَ قِرَاءَةُ كُلِّ الْقُرَاءِ مَا عدا ابْنَ كَثِيرٍ وَنَافِعٍ ،  
وَأَوَّلُ هَذِهِ الْإِمَانَاتِ أَمَانَةُ الْفُطْرَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ فِي قَاعِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ ،  
وَالَّتِي يَحْجِبُهَا أَحْيَانًا عَنِ الظُّهُورِ فِي سُلُوكِ الْمُؤْمِنِ عَوَامِلٌ مُتَعَدِّدَةٌ مِنْ  
دَاخِلِ النَّفْسِ وَخَارِجِهَا ، فَمَنْ دَاخَلَهَا النَّفْسُ وَالْهَوَى ، وَمَنْ خَارِجَهَا  
اِتِّسَاعُ طَائِفَةٍ وَأَغْوَاءُهَا وَاغْتِرَاءَاتُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفُتْنَتُهَا ، وَالنَّصُّ فِي هَذِهِ  
الْآيَةِ يَشْمَلُ كُلَّ أَمَانَةٍ وَكُلِّ عَهْدٍ ، وَيُصِفُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ  
رَاعُونَ فَمِنْ صِفَةٍ ثَابِتَةٍ لَهُمْ وَدَائِمَةٍ فِي كُلِّ حِينٍ اسْتِفِيدَ هَذَا الْمَعْنَى مِنْ

(١٥) الدَّرُ الْمَصْنُوعُ ٦/٣٦٤ .

(١٦) سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ : آيَةُ ٨ .

(١٧) سُورَةُ النَّسَاءِ آيَةُ ٥٨ .

الجملة الإسمية التي جاء الخبر فيها اسم فاعل تحمل صفة الدوام والنبات :

ونلاحظ أيضا في هذه للسورة انه تكرر ذكر الصلاة ، وهو في الظاهر تكرر وفي الحقيقة ليس بتكرار ، لأنه ذكر الصلاة أولا بلفظ الإفراد في قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » وذلك لأفادة تحقيق الخشوع في جنس الصلاة أي صلاة كانت فرضا أو بسنة وفي أي حالة كانت يؤديها المصلي بمفرده أو في جماعة فالمراد من الإفراد جنس الصلاة ، وذكرها ثانيا بصيغة الجمع لإفادة المحافظة على أعدادها وهي الصلوات الخمس والوتر والسنة الراتية ، فلا يفوتونها كبلا ، ولا يضيعونها أهمالا ، ولا يقصرون في إقامتها كما ينبغي أن تقام ، فأفردت أولا لأفادة المحافظة على كقيمتها بتدائها كاملة بآركانها وخشوعها والاخلاص فيها والوسائل المؤدية إليها من الطهارة بالوضوء والغسل وغير ذلك وجمعت آخرها لأفادة المحافظة عليها من حيث العدد والكم وعدم فوات شيء منها قال تعالى « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » فلا يؤخرها المؤذن عن وقتها الذي حدد لها .

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال وهو لماذا عدل في المحافظة على الصلاة عن اسم الفاعل إلى الفعل فقيال « يحافظون » ونم بقل « جافضون » .

والجواب - والله أعلم - هو أن المحافظة عليها من حيث أعدادها يتجدد وقتا بعد وقت حسب الأوقات التي شرع الله فيها الصلاة . وأما الخشوع فيها فيجب أن يكون صفة للمؤمن ثابتة ومستقرة ودائمة طوال الصلاة ولذلك قال « والذين هم في صلاتهم خاشعون » أي في أدائهم للصلاة خاشعون .

وفي قوله تعالى : « وما يستوي للأعمى والبصير » ولا الظلمات ولا النور » (١٨) أفراد الأعمى والبصير وتباينهما بجمع الظلمات والأفراد النور ، والبصر في أفراد الأعمى والبصير ، في إرادة مقابلة الجنين بالجنس ، إذ قد يوجد في أفراد العميان ما يساوي بعض أفراد البصراء كأعمى ذكي له بصيرة يساوي بصيرا بليدا غالتفاوت بين الجنسين مقطوع به لا بين الأفراد .

أما السر في جمع الظلمات والأفراد النور فلما ذكرنا سابقا من أنه جمع الظلمات لأن أفراد منها الكفر والضلال ، وطريقهما كثيره وتستوعبه ووجد أنور دالة عبارة عن التوحيد وهو واحد والسدى يبع مسج التوحيد يسلك طريقا واحدا مستقيما قال تعالى : « وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » (١٩) فالتفاوت بين كل فرد من أفراد الظلمة وبين هذا الفرد الواحد ، ومعنى انظلمات كلها لا تجد فيها ما يساوي هذا الواحد .

وقيل : إنه ينبغي أن يقال إن هذا الجمع لا يساوي هذا الواحد فتعلم انتماء مساواة فرد منه لهذا الواحد بطريق أولى ، وإنما جمع الأحياء والآهوات ، لأن التفاوت بينهما أكثر إذ ما من ميت يساوي في الإدراك حيا ، فذكر أن الأحياء لا يساويون الآهوات سواء قبلت الجنس بالجنس أم الفرد بالفرد (٢٠) .

وتد ينأى الخطاب بالأفراد أولا ثم يتحول منه إلى الجمع ثانيا كما في قوله تعالى : « وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا يحملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا » (٢١) الخطاب للنبي -

(١٨) فاطر ١٩ ، ٢٠ .

(١٩) الانعام ١٥٣ .

(٢٠) الدر المحزون ٤٦٥/٥ .

(٢١) سورة يونس ٦٢ .

ﷺ - وإنما جمع في الفعل الثالث ليدل على أن الأمة داخلون مع النبي ﷺ وحده ، وإنما جمع تفخيماً له وتعظيماً كما في قوله تعالى : « أفستعمون أن يؤمنوا لكم » (٢٢) ولا شك أن الخطاب أولاً بالافراد يختص برسول الله ﷺ إلا أن الأمة داخلون فيه ومرادون منه ، لأنه من المعلوم أنه إذا خاطب رئيس القوم كان القوم داخلين في ذلك الخطاب والدليل عليه قوله تعالى : « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء » والدليل عليه أيضاً هو تعميم الكل بالخطاب الثالث في قوله تعالى : « ولا تعملون من عمل » ..

وقد يوصف جمع المؤنث بالواحدة ، وهذا جائز ، ولكن جوازه قد يكون مستصفاً بل قد ينتقل من حيز الجواز الى حيز الوجوب لمراعاة النظم والايقاع الصوتي في الآية والذي جرت عليه السورة كما هي قوله تعالى : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » ومثله في سورة طه لتريك من آياتنا الكبرى » .

والقراءات القرآنية لها أثر كبير في ثراء المعنى الناتج عن قراءة الجمع وقراءة الافراد في الكلمة الواحدة كما في قوله تعالى : « يوم يطوى السماء كطي السجل للكتب » (٢٤) قرأ الأخوان وحفص للكتب جمعا ، والباقون « للكتاب » مفردا والرسم واحد غالباً افراد يراد به الجنس والجمع للدلالة على الاختلاف أي اختلاف الأنواع المندرجة تحت هذا الجنس أي أن السماء تطوى كما يطوى خازن الصحائف صحائفه ولكل انسان صحيفة تختلف عن الآخرين قال تعالى : « وكل

• (٢٢) سورة البقرة ٧٥

• (٢٣) سورة النجم آية ١٨

• (٢٤) سورة الانبياء ١٠٤

فإنسان أكرمناه طائرته في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه  
منشورا» (٢٥) •

ومن أيار صيغة الجمع على صيغة الأفراد لفظه «الصير» في  
قوله تعالى : « أن أنكر الأصوات لصوت الحمير » (٢٦) ويترجمه أنه  
وجد لفظ الصوت وجمع « الحمير » يجيب أنزمتري على سر المراد  
فيقول : فإن قلت : لم وجد صوت الحمير ولم يجمع مع أنه تقدمه  
جمع ؟ قلت : ليس المراد أن يذكر صوت كل واحد من أحاد هذا الجنس  
حتى يجمع ، وإنما المراد أن كل جنس من الحيوانات الناطق له صوت  
وأنكر أصوات هذه الأجناس صرت هذا الجنس فوجب توبيخه (٢٧) •  
ويجيب عن سر جمع الحمير الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره  
فيقول : وإنما جمع الحمير في نظم القرآن مع أن « صوت » مفسدا  
ولم يمل « الحمار » لأن المعروف بلان الجنس يستوي فيه مفردة وجمعه  
ولذلك يمل : أن لا يمل للجنس إذا دخلت على جمع أبطلت منه معنى  
الجمعية ، وإنما أثر لفظ الجمع لأن كلمة « الصير » أسعد بالفواصل  
الآن من محاسن الفواصل والإسجاع أن تجرى على أحكام أنواري :  
والقافية المؤسسة بالواو أو الياء لا يجوز أن يرد معها ألف تاسيس  
فإن الفواصل المتقدمة من قوله تعالى « ولقد آتينا لقمان الحكمة »  
هي حميد - عظيم - المصير - خبير - الأمور - فخور - الحمير ،  
وفواصل القرآن تعتمد كثيرا على الحركات والمدود والصيغ دون تماثل  
الحروف ، وبذلك تخالف قوافي القصائد (٢٨) •  
وفي قوله تعالى : « وإذا غشيهم موج كالكظ » (٢٩) نجد أفراد

(٢٥) سورة الاسراء آية ١٣ •

(٢٦) لقمان ١٦ •

(٢٧) إكتشاف ج ٣ •

(٢٨) التحرير والتنوير •

(٢٩) سورة لقمان الآية ٢٤ •

الموج وجفج الخلك إشارة الى عظيم الموج يعنى الموج الواحد العظيم يرى فيه طلوع ونزول وتتابع فى الجرية الواحدة حتى ليخيل للرائى أنه موج واحد ينتقل من مكان الى آخر حتى يصل الى الشاطئ وهو فى تتابعه يكون كالجبال المتلاصقة .

يتنوع النظم القرآنى فيما يأتى أولا بصيغة الجمع فى قوله تعالى : « اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تتيا فى ذنرى » ثم يعدل عنه الى الافراد فى قوله تعالى « قد جئناك بآية من ربك » مع أن الله تعالى لم يذكر لموسى عليه السلام فى هذا الموضع وفى سائر المواضع الا آيتين هما العصا واليد وعبر عنهما بالمتنى فى سورة القصص فى قوله تعالى : « فاذنك برهانان من ربك الى فرعون » فكيف الجمع بين هذه الصيغ العددية ؟

والجواب عن ذلك هو أن العصا واليد وان كانتا آيتين على الاجمال معهما آيات متعددة عند التفصيل ، فان انقلاب العصا خيوانا آية ثم انها كانت صغيرة تهتز كأنها جان ثم صارت كبيرة آية أخرى ، وصيرورتها شعبانا آية أخرى ثم انقلابها خشبة كما كانت آية أخرى وكذلك اليد بياضها آية ، وشعاعها آية أخرى ، وزوالها آية أخرى ، فبذا هو سر الجمع فى هذا السياق الذى يقصد فيه التفصيل وتعدد الآيات .

أما أفرادها فى الآية الأخرى فان القصد لم يتوجه الى العدد وانما القصد الى الجنس يقول الزمخشري : وانما وجد آية ، لم تنن ومعه آيتان لأن المراد فى هذا الموضع هو تثبيت الدعوى ببرهانها فكانه قال : قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعينا من الرسالة ، بدليل قوله تعالى « قد جئناكم ببينة من ربكم » وقوله تعالى « فات بآية ان كنت من الصادقين » وفى سورة القصص كان القصد الى الآيتين على وجه الاجمال ، فذكر فى كل موضع ما يناسبه .

## الفصل التاسع

### بين التثنية والجمع

في قوله تعالى : « هذان خصمان اختصموا في ربهم » فجا،  
معنى أولا ثم عدل عن التثنية الى الجمع فما سر التعبير عن الجماعة  
بالتثنية وسر العدول عنها الى الجمع ؟

يقول الزمخشري : ... الخصم صفة وصف بها الفوج أو الفريق  
فكأنه قيل : هذان فوجان أو فريقان يختصمان ، وقوله : هذان تلفظ  
واختصموا للمعنى كقوله : « ومنهم من يستمع إليك حتى اذا  
خرجوا ... » (١) .

ولو قيل : هؤلاء خصمان أو اختصما جاز — يراد المؤمنون  
والكافرون فالزمخشري لم يبين السر البلاغي لهذه الظاهرة وإنما  
حاول توجيهها لغويا من باب الحمل على المعنى بعد الجمع ، على  
اللفظ ولها نظائر كثيرة في القرآن الكريم ، واذا ما أردنا أن ندلى  
بدلونا في بيان السر البلاغي للتثنية والجمع في هذه الآية  
فاننا نقول : إن السياق دائما هو الذي يشرح من خلاله  
السر البلاغي فقد سبقنا هذه الآية بآية عدها فيهما  
طوائف الأديان أو أصحاب المذاهب المختلفة وهي قوله تعالى : « أن الذين  
آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا  
إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد » فعلى  
الرغم من تعدد هذه الطوائف إلا أنهم في حقيقة الأمر فريقان فريق

١٧٥ المختار ٤٨٨



عرف الحق فاهتدى اليه وغريق آخر ضل عن الطريق المستقيم فتخبط في الباطل « فضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » فالخصومة تكون يوم القيامة بين هذين الغريقين بين المؤمنين والكافرين ، وجمع بعد ذلك باعتبار تعدد هذه الطوائف وتباينها مراعاة لحالهم في الدنيا وما هم عليه من اختلاف العقائد وتباين الاتجاهات وتعدد التسميات واختلاف المذاهب .

ومن العدول عن الجمع الى التثنية في قوله تعالى : « اذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض » فقد تقدم الجمع في قوله : دخلوا — منهم — قالوا ، ثم عدل الى التثنية في قوله : خصمان وقد سبق قبل ذلك تصدير هذه القصة باستفهام شوق الى معرفة أحداث هذه القصة ، ومنبها على مكانتها ليكن ذلك ادعى الى الاصغاء اليها والاعتبار بها في قوله تعالى : « وهل أتاك نبؤ الخصم اذ تسوروا المحراب » فالخصم هنا مصدر خصمته أخصمه خصما ويسمى به الاثنان والجمع ، وهنا مراد منه الاثنان كما ورد في كثير من التفاسير أنهما ملكان يقال : هما خصم ، وهم خصم .

فالملاحظ أن الخصم المفرد قد استعمل وأريد به جماعة المتخاصمين أو أريد به المثنى لما ورد في بعض التفاسير أن الخصومة كانت بين شخصين اثنين أو أن الخصومة كانت بين اثنين في الأساس ومعهما صاحب وأعوان وشهود يساند كل فريق منهما صاحبه في خصومته ضد الآخر فهما اذن فريقان خصمان ويبدو أن الخصمين قد تسوروا على داود المحراب في خلوته للعبادة .

لما ورد عن ابن عباس — رضي الله عنهما — أن داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء يوما يخلو فيه للعبادة ويوما للقضاء ،

ويوما للاستعمال بخواص أموره ، ويوما للوئظ والتذكير ، ولما كان داود عليه السلام حريصا على تمام الاخلاص في العبادة فانه قد تفرغ تماما من كل الشواغل الدنيوية ليتجه بقلبه وكيانه الى الله تعالى وهذه فلا يصرفه عن عبادته صارف ما .

ولما حدث هذا الأمر وهو تسور الخصم المحراب على داود عليه السلام فزع منهم لا لأنهم تسوروا عليه المحراب فهذا أمر حين لأنه يثق في كلاء الله له وحفظه وانما الخوف والفرع الذي انتابه كان من أجل فوات وقت العبادة وانصرافه عنها للفصل بين المتخاصمين فأراد الخصم أن يقلل من الوقت الذي يضيع على داود عليه السلام في الفصل في هذه الخصومة فأفردا أي جعلها خصومة واحدة ومن هنا كان السر في إثارة العدول عن الأفراد أو الجمع إلى التثنية لتطمينه إلى أن هذه الخصومة لا تضيق عليه وقتا كبيرا من يومه الذي يخلو فيه للعبادة ، فكانهم بذلك يبادرونه بالقول : لا تخف من ضياع يومك فهذه الجموع التي تراها لم تأت إلا من أجل خصومة واحدة . ولو أتى بالأفراد أو الجمع لم يفد هذا المعنى .

ومن مواضع التحول عن التثنية إلى الجمع ثم منه إلى التثنية مرة أخرى قول الحق تبارك وتعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » ( الآية : الحجرات ) .

ففي تلك الآية الكريمة أتى بالتثنية في قوله : طائفتان ثم تحول عنها إلى الجمع في قوله تعالى : « اقتتلوا » ثم تحول آخر من الجمع إلى التثنية في قوله « بينهما » ما السر — إذن — في هذين التحولين — انهما أي الطائفتان قبل القتال كانت كل طائفة من الطائفتين كأنها رجل واحد لتوحد الكلمة وإتفاق الرأي وكذلك بعد الصلح تلين النفوس وتتقاد لداعي الحق فتتوحد صفوها وينتظم غيبتها فتكون ( ١٣ - البلاغة )

متناسكة متآزرمة متآلفة كأنها نفس واحدة أما عند القتال فتشتت  
الآراء وتعظم الفتنة فيؤدى ذلك الى اختلاف القلوب ونوازع النفوس  
فينقسم الصف الواحد الى صفوف متنازعة في حال الاقتتال •

هذا الذى ذكرته انما هو ما يفهم من كلام الفخر الرازى في  
تفسيره اذ يقول : « عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة ، وكل أحد برأسه  
يكون فاعلا فعلا فقال : « اقتتلوا » وعند العود الى الصلح تنفق  
كلمة كل طائفة ، والا لم يكن يتحقق الصلح فقال « بينهما » لكون  
الطائفتين حينئذ كفتسين » (٢) •

وهن موطن المدول عن التثنية الى الجمع ومن جمع المؤنث الملائم  
لما لا يعقل الى جمع المذكر وذلك في قوله تعالى « ثم استوى الى  
السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا  
طائعتين » فقد عدل عن التثنية في قوله : « ائتيا » وقوله : « قالتا »  
الى الجمع في قوله : طائعتين ثم ان هذا الجمع معدول به عن جمع  
المؤنث الملائم لأن يكون صفة لما لا يعقل ومن السموات والأرض •

يقول الزمخشري في تفسيره لتلك الآية : « فان قلت : هلا قيل :  
طائعتين على اللفظ أو طائعات على المعنى لأنها سموات وأرضون ؟ قلت  
لما جملن مخاطبات ومجيبات ، ووصفن بالطوع والكراهة قيل :  
طائعتين (٣) • يعنى أن السماء والأرض لما وجه اليها الأمر من  
الخالق جل وعلا جعلت كأنها عاقلة تسمى ما يقال لها وما يطلب منها  
فنفذت منزلة العقلاء ومن ثم عدل عن جمع المؤنث الملائم لما لا يعقل  
وعلى جمع المذكر وفي ذلك تعريض بهؤلاء الذين ضلت عقولهم فتردت

(٢) التفسير الكبير ٤/٣٨٢ •

(٣) الكشاف ٣/٣٨٥ •

جهم سفاهتهم في هوة الشرك والغواية ، فكان الآية الكريمة بنسبتها  
هذا العدول في ذلك السياق تجسيد للمفارقة الواضحة بين تلك  
انجمادات التي لا تملك الا الطاعة والانقياد المطلق لجبروت الخائق عز  
وجل ، وبين هؤلاء الملاحدة من البشر العقلاء الذين تعطلت عقولهم  
فانغمسوا في مباءة المعصية بين اشراك به واقع واعراض عن تذكيرهم  
بآياته ودلائل قدرته متوقع (٤) .

وفي قوله تعالى « ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء  
ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستويون »  
ضرب الله مثلا للسيد المالك الرازق والمملوك العاجز الذي لا يملك  
ولا يكتب وهو مثل مأخوذ من واقعهم فقد كان لهم عبيد مملوكون  
لا يملكون شيئا ولا يقدرون على شيء وهم لا يستويون بين العبد  
المملوك العاجز والسيد المالك المتصرف فكيف يسوون بين سيد العباد  
ومالكهم وبين أحد أو شيء مما خلق ، وكل مخلوقاته له عبيد ، وهذا  
سؤالان : الأول : ما فائدة وصف المملوك بأنه لا يقدر على شيء ؟ مع  
أن المملوك لا يصح له ملك عند جمهور الفقهاء ؟

لجواب الزمخشري عن هذا بقوله « فليجعل غير مكاتب ولا مأذون له  
لأنهما يقدران على التصرف ومعنى هذا أن فائدة الوصف هنا للتخصيص  
والاحتراز أي لتخصيص المملوك الذي لا قدرة له على التصرف  
ليحتراز به عن دخول المملوك المكاتب والمأذون له من قبل سيده في  
التصرف ، ولم يرتفع ابن المنير ما قاله الزمخشري « بينا أنه بعيد عن  
فصلحة القرآن إذ هو يتفق مع مذهب الإمام مالك — رضي الله عنه —  
في صحة ملك العبد المملوك » .

## بين الجمع والتثنية :

في قوله تعالى يا معشر الجن والإنس ان استطعتم ان تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان » (٥) راعى المعنى فجمع في قوله : « استطعتم » « أن تنفذوا » « فانفذوا » « لا تنفذون » ثم روعى اللفظ ، أى لفظاً التثنية في قوله بعد : « يرسل عليكم » ما السرى مراعاة المعنى أولاً ؟ قيل ان كل واحد من الجن والإنس تحته أفراد كثيرة لأنه اسم جنس ، كقوله تعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » .

ولكننا نقول : ان ايثار الجمع على المثني في الآية يقتضيه مقام التحديد والتعجيز فلو تمالاً كل أفراد الانس وكل أفراد الجن وتعاضدوا على التمكن من النفوذ من أقطار السموات والأرض لا يستطيعون ، فالمرعى « فانفذوا » للتعجيز ، أما مراعاة اللفظ بعد ذلك بالإتيان بالمثنى في قوله تعالى : « يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتهزان » (٦) .

غالب اقتضاء المقام الإتيان به ، لأنه من المعلوم أن الجن خلقوا من النار بخلاف الإنس فان الله خلقهم من تراب فطبيعة كل منهما تختلف عن الآخر ، والنار التي أعدها الله لاحتراق الجن لا شك أنها نلر تؤثر وتؤلم من خلقوا منها فربما تكون النار التي أعدها الله للجن خلاف النار التي أعدها الله للإنس لاختلاف طبيعة كل منهما ومن ثم أتى بالمثنى للدلالة على استقلال كل جنس بفار وحرقه ، تكون ملائمة لطبيعته ، ومعدة لعذابه ، أى يرسل على كل جنس نارا ونحاساً معدة

(٥) سورة الرحمن الآية ٣٣ .

(٦) سورة الرحمن الآية ٣٥ .

لعذابه « أو قد يكون السر في التثنية ما قاله الرازي « لبيان الأرسال على النوعين لا على كل واحد منهما ، لكن جميع الانس والجن لا يرسل عليهم العذاب والنار ، فهو يرسل على النوعين ويتخلص منه بعض منهما بفضل الله ، ولا يخرج أحد من الأقطار أصلا » (٧) •

هذا بالإضافة الى توافقه مع الجملة التي كررت لتعداد النعم والآلاء وهي قوله تعالى : « فبأي آلاء ربكمبا تكذبان » فامتثلت التثنية بالتثنية (٨) •

وفي قوله تعالى « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثنه انس قبلهم ولا جان » قالوا الضمير في « فيهن » يعود على الجنات مع أن المتقدم جنتان وقد وصفتا بالمتنى في قوله تعالى : « ذواتا أفنان » وقوله : « شيما عينان تجريان » وقوله : « فيهما من كل فاكهة زوجان » فصا السر - اذن - في تزك التثنية وإثبات الجنة ؟ قيل : ان أصل الجمع اثنان على قول ، وقيل : انه عائد على الجنان المدلول عليها بالجننتين لأن الجنة لها اعتبارات ثلاثة كما يقول الفخر الرازي :

أحدها : اتصال أشجارها وعدم وقوع الفيافى والمهامه فيها والأراضى الغامرة ومن هذا الوجه كأنها جنة واحدة لا يفصلها فاصل •

ثانيها : اشتغالها على النوعين كأنها جنتان •

وثالثها : لسعتها وكثرة أشجارها وأماكها وأنهارها ومسكنها كأنها جنات فهي من وجه جنة واحدة ومن وجه جنتان ومن وجه جنات • فالضمير في قوله « فيهن » يشير الى الوجه الثالث ، ويشير أيضا

(٧) التفسير الكبير ١٥/١٩٨ •

(٨) سورة الرحمن الآية ٥٦ •

الى كثرة الأماكن في الجنة التي هي مساكن الحور العين وتفرقها فلكل واحدة منهن ما يليق بها من المكان الواسع فتصير الجنة التي هي واحدة من حيث الاتصال كثيرة من حيث تفرق المساكن فيها (٩) .

ونقل القرطبي عن الزجاج قولاً في سر جمع « فيهن » وهو أنه سبحانه يعني الجنيتين وما أعد لمصاحبهما من النعيم وقيل « فيهن » يعود على الفرش التي بطائنها من استبرق أى في هذه الفرش قاصرات الطرف أى نساء قاصرات الطرف قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يطمعن ببصرهن الى غيرهم من الأزواج (١٠) .

والذي أراه أن الضمير في « فيهن » يعود على الجنيتين باعتبار درجات أصحابهما ومنازلهم فيهما وهي كثيرة فان لكل فرد درجته ومنزله المعد له جزاء وفاقاً على قدر عمله . والمقام يقتضى هذا المعنى اذ أن الشئيين العظيمين لسا لهما من جلالة القدر وعظيم الأثر قد يقصد المبالغة فيهما بجعل كل واحد منهما عدة أشياء .

وسال الزمخشري : ان الضمير في قوله : « فيهن » يعود على الآلاء المحدودة من الجنيتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى (١١) وهو غول جيد .

وفي قوله تعالى « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » نجد أن الضمير في قوله تعالى : « كانتا » يعود على السموات والأرض بلفظ التثنية والمتقدم جمع ، ذكر الزمخشري في تأويل ذلك قوله : وانما قيل : كانتا دون كن ، لأن المراد جماعة .

(٩) التفسير الكبير ١٥/٢٢٢ .

(١٠) تفسير القرطبي ٩/٦٣٥٠ .

(١١) الكشاف ٤/٤٩٠ .

السموات وجماعة الأرضين (١٢) ، وقيل : الضمير يعود على الجنسين أو أنه أراد الصنفين كما قال الشاعر :

ان المنية والحتوف كلاهما يوغي المخارم يوقبان سواي

لأنه أراد النوعين وتبعه ابن عطية في هذا فقال : وكانتنا من حيث هما نوعان ونحوه قول عمرو شيم :

ألم يحزنك أن جبال قيس وتغلب قد تباينتنا انقطاعا (١٣)

فلما كان الغرض اعتبار الجنس أو النوع دون اعتبار الأفراد عاد الضمير عليهما باعتبار ذلك . وهذا يشير إلى أنهما أي السموات والأرض كانتا كتلة واحدة ففصلهما رب العزة عن بعضهما ، و « رتقا » خبر ولم يثن لأنه في الأصل مصدر قائم مقام المفعول كالخلق بمعنى المخلوق أو على حذف مضاف أي ذراتي رتقا .

وفي قوله تعالى : « وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرت إذ نفثت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين » نجد أن الحكم وقع من اثنين «هما داود وسليمان بدلالة قوله « إذ يحكمان » وعندما أراد المولى عز وجل بيان شهادة هذا الحكم قال : وكنا لحكمهم شاهدين ٣ فأضاف الحكم إلى ضمير الجمع مع أن الحكم وقع من اثنين وهم داود وسليمان وذلك اختلف تأويل المفسرين فقال بعضهم : أنه ضمير جمع يراد به مثني ، وإنما وقع الجمع موقع التثنية مجازا ، ولأن التثنية جمع وأقل الجمع اثنين ، ويدل على أن المراد التثنية قراءة ابن عباس « لحكمهما » بصيغة التثنية ، وقال آخرون أن الحكم كمال

(١٢) الكشاف ٥٧٠/٢

(١٣) الدر المنصور ٨١/٥



يضاف الى الحاكم فقد يضاف الى المحكوم له والمحكوم عليه فاذا اضيف الحكم الى المتحاكمين كان المجموع أكثر الاثنين ، وهذا يلزم منه اضافة المصدر الى فاعله ومفعوله دفعة واحدة وهو انما يضاف لأحدهما فقط وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز، فان الحقيقة اضافة المصدر لفاعله والمجاز اضافته الى مفعوله .

وقد يقع الجمع موقع المثنى لاعادة التعظيم كما وقع موقع الواحد لاعادة هذا المعنى كما في قوله تعالى : « ولقد مننا على موسى وهارون ونجيناها وقومهما من الكرب العظيم . ونصرناهم فكانوا هم الغالبين » (١٤) فتجد التثنية في قوله : « ونجيناها وقومهما » وفي قوله « ونصرناهم » عدل عن التثنية الى الجمع ، قيل : ان الجمع هنا على حقيقته لأنه أي الضمير « هم » عائد على موسى وهارون وقومهما وهذا هو الأرجح لأن النصر لا يتحقق بموسى وهارون وحدهما وانما يتحقق بمؤازرة قومه لهما . وقيل الضمير عائد على الاثنين بلفظ الجمع تعظيما كقوله تعالى : « يا أيها النبي اذا طلقتم » (١٥) .

وفي قوله تعالى : « ولا يسأل حديم حديما يبصرونهم » (\*) جمع الضميرين في « يبصرونهم » وهما لحميمين حملا على المعنى أي معنى العموم لأنهما نكرتان في سياق النفي .

وقد يذكر الجمع ويراد منه التثنية ، وذلك لغرض بلاغي يقتضيه المقام كما في قوله تعالى : « ومن آتاه الليل فسيح وأطراف النهار لعلك

(١٤) سورة الصافات ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ .

(١٥) الطلاق آية ١ .

\* سورة المارج آية ١٠ .

ترضى « (١٦) فقد سبق في هود قوله تعالى « أقم الصلاة طرفي  
النهار وزلفا من الليل » فكيف جاء هنا بالجمع ؟ والجواب عن ذلك :  
قيل هو من وضع الجمع موضع التثنية كقول الشاعر :  
ظفراها مثل ظهور الترسين

وقيل : هو على حقيقته ، والمراد بأطراف النهار ساعاته .  
وقد يقال : ان المراد بأطراف النهار مشرقه ومغربه ، وانما  
جمع لاختلاف أوقات المشرق والمغرب باختلاف الأقطار نظرا لتباعد  
ما بينها في المسافت ، فلكل قطر مشرقه ومغربه .

وفي قوله تعالى : « وانها ليسبيل مقيم » الضمير في قوله  
تعالى : « وانها » عائد على مدينة قوم لوط ، وقد سبق ذكرها في قوله  
تعالى « وجاء أهل المدينة » (١٧) ، وقوله تعالى : « ليسبيل مقيم »  
أي هذه القرى ما زال قائما لم يندرس ولم يخف على الناظر حين  
يمر عليها ولذلك جاءت الآية تشير الى ذلك في قوله تعالى : « وانها  
ليسبيل مقيم » فالضمير في « انها » عائد على مدينة قوم لوط في  
قوله تعالى : « وجاء أهل المدينة » والذين يمرون من الحجاز الى  
الشام يشاهدونها . وكذلك الذين يمرون من الشام الى الحجاز في  
في طريق المؤمنين ذهابا وايابا حينما يذهبون لحج بيت الله الحرام  
فينبغي عليهم أن يعتبروا بما حدث للامم السابقة لاسيما أنهم يشاهدون  
آثارهم في ديارهم ، ولما كان أهم صفة المؤمنين هي الوحدانية ناسب  
ذلك توحيد الآية دلالة على وحدة المؤمنين في عقيدتهم فكلمهم بمتونة  
ويا واحدا ووحدتهم في عبادتهم فكلمهم يتجهون نحو بيت واحد وهو

البيت الحرام في مكة .  
(١٦) سورة طه : ٧ .  
(١٧) سورة الحجر : ٦٧ .

بيت الله الحرام . ووحدهم في سلوكهم ومعاملاتهم فكذلك يسلك طريقا واحدا وهو الصراط المستقيم ، قال تعالى « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » الأنعام .

وقد ورد جمع الآية مع المؤمنين في سورة التل في قوله تعالى : « أن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » ( النحل : ٧٩ ) وذلك عقب ذكر نعم متعددة من خلق الانسان وإخراجه من بطن أمه لا يعلم شيئا ثم انتقاله من الجهل الى العلم بخلق منافذ الإدراك فيه من السمع والبصر والفؤاد وتهيئتها لتحصيل المعلومات ، وخلق الطير على نحو يمكنها من الطيران في جو السماء (١٨) فلما تعددت النعم تعددت الآيات وخص بها المؤمنين لأنهم هم المنتفعون بها وأن كانت هذه الآيات آيات لكل العقلاء (١٩) .

وورد جمع الآية مع المؤمنين أيضا في سورة الجاثية في قوله تعالى « أن في خلق السموات والأرض لآيات للمؤمنين » ( الجاثية : ٣ ) فما يوجد في السموات والأرض آيات كثيرة من الشمس والقمر والنجوم والجيال والبحار وغير ذلك مما تعلمه وما لا تعلمه ، وقد ذكر الفخر الرازي سر اختصاص هذه الآيات بالمؤمنين مع أنها آيات للمؤمنين والكافرين فنقل عن المعتزلة قولهم : انه لما انتفع بها المؤمن دون الكافر أضيف كونها آيات الى المؤمنين ، ونظيره قوله تعالى : « هدى للمتقين » فإنه هدى لكل الناس كما قال تعالى « هدى للناس »

(١٨) قال تعالى « والله اخبركم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » الم يروا الى الطير مستخرات في جو السماء ما يسكنهن الا الله » (١٨ : ٧٠) .

(١٩) التفسير الكبير ١٨/٦٠٣ .

« لا أنه لما انتفع بها المؤمن خاصة لا جرم قيل « هدى للمتقين »  
فكذا هنا (٢٠) »

وفى قوله تعالى : « ان تتوبا فقد صغت قلوبكما » (التحریم :  
٤) نجد أنه قد وضع الجمع موضع التثنية كراهة توالى تثنيتين لو قيل  
قلوبكما فيكون فيه ثقلاً واشترط النحويون في وقوع الجمع موقع  
التثنية شروطاً من جهلتها : أن يكون ذلك الجزء المضاف مفرداً من  
صاحبه نحو « قلوبكما » و « رؤوس الكهشين » لأمن  
اللباس بخلاف العينين واليدين والرجلين لو قلت فقات أعينهما وأنت  
تعنى : عينيهما ، وكثفت أيديهما ، وأنت تعنى يديهما لم يجز للبس  
فلولا أن الدليل دل على أن أراد اليدان اليمينان لما ساغ ذلك لأنه  
معلوم أنه يقطع من كل سارق يمينه فهي على هذا متعينة وتكون من  
باب « صغت قلوبكما » لأمن اللبس (٢١)

وقالوا ضابط هذه المسألة هو : كل جزأين أضيفا إلى كليهما لفظاً  
أو تقديرًا ، وكانا مفردين من صاحبيهما جاز فيه ثلاثة أوجه الأحسن  
والأفصح الجمع ، ويليه الأفراد ويليه التثنية والجمع كلها في الآيتين  
والأفراد كما في قول الشاعر :

حمامة بطن الواديين ترنمى سقاك من الغر الغواذى مطيرها

والتثنية كما في قول الشاعر :

ومهممين قذفين مرتين ظهراهما مثل ظهور الترس

وهذا مستفيض في لغة العرب أعنى وقوع الجمع موقع التثنية

(٢٠) التفسير الكبير ٢٧/١٦٥

(٢١) مفاتيح الغيب ١٥/٢٢٢

وقد يقع المثنى موقع الجمع لافادة الكثرة كما فى قوله تعالى : « ثم أرجع البصر كرتين .. » فكرتين مثنى لا يراد به حقيقته بل يراد منه التكثير بدليل قوله « ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » أى مزدجرا وهو كليل ، وهذان الوصفان لا يأتیان بنظرتين ولا ثلاث ، وإنما المعنى كرات ، وهذا كقولهم لبيك وسعديك وجنانيك ودواليك وهذائك لا يريدون بهذه التثنية شفع الواحد ، وإنما يريدون التكثير أى اجابة لك بعد أخرى ، والتثنية تفيد التكثير لقريته كما يفيد أصلها وهو العطف لقريته كقول الشاعر :

لوعد قبر وقبر كنت أكرههم أى قبور كثيرة ليتم المدح

ومعنى الآية أنه سبحانه وتعالى أمر بتكرير البصر فى خلق الرحمن على سبيل التصفح والتتبع هل يجد فيه عيبا وخلا معنى أنك إذا كررت نظرك لم يرجع اليك بضر كما طلبته من وجدان الظلم والعيب بل يرجع اليك خاسئا أى مبعدا من قولك خسأت الكلب إذا بعادته « وهو حسير » بمعنى وهو كليل من الحسور الذى هو الاعياء (٢٢)

### أهم المصادر والمراجع

- ١ - أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية للدكتور حسن طهيل -  
المدينة المنورة .
- ٢ - اعجاز القرآن للرافعي - دار الكتاب العربي - بيروت لبنان .
- ٣ - الاعجاز البياني للقرآن للدكتور عائشة عبد الرحمن ( بنت  
الشاطيء ) ط دار المعارف .
- ٤ - إملأ ما من به الرحمن لأبي البقاء العكبري .
- ٥ - الانتصاف لابن المنير الإسكندري على هامش الكشف .
- ٦ - البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي - دار الفكر للطباعة والنشر  
والتوزيع - بيروت .
- ٧ - بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية - دار الكتاب العربي -  
بيروت لبنان .
- ٨ - البرهان في علوم القرآن للزركشي - مكتبة دار التراث -  
القاهرة .
- ٩ - البلاغة القرآنية للدكتور محمد أبو موسى مطبعة إهية .
- ١٠ - البيان والتبيين للجرجاني ط دار المعارف .
- ١١ - تحفة الأشراف في كشف غوامض الكشف للفاضل اليمني  
دراسة وتحقيق للمؤلف .
- ١٢ - التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور - الدار التونسية  
للنشر .
- ١٣ - تفسير الشيخ محمد متولى الشعراوي - دار أخبار اليوم .
- ١٤ - تفسير الفخر الرازي ( التفسير الكبير ) نشر دار الفداء العربي .
- ١٥ - تفسير القرطبي - دار الريان للتراث - القاهرة .

- ١٦ - التفسير القيم للإمام ابن القيم - تفسير المنار •
- ١٧ - حاشية انشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي •
- ١٨ - حاشية قطب الدين الرازي على الكشاف تحقيق د / ابراهيم طه الجعلى الجزء الأول •
- ١٩ - الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي تحقيق / أحمد الخراط - دار القلم - دمشق •
- ٢٠ - روح المعاني للآلوسي - دار احياء التراث العربى - بيروت •
- ٢١ - الطراز للعلوى - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان •
- ٢٢ - فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن للشيخ محمد على الصابوني - نشر مكتبة الصابوني •
- ٢٣ - فن البلاغة للأستاذ الدكتور عبد القادر حسين - دار المنار - بيروت ط ثانية •
- ٢٤ - فى ظلال القرآن لسيد قطب - ط دار الشروق •
- ٢٥ - القرآن - اعجازه وبلاغته للدكتور عبد القادر حسين - المطبعة النموذجية - الحلمية الجديد •
- ٢٦ - الكشاف للزمخشري - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع •
- ٢٧ - متشابه النظم القرآنى فى قصة آدم عليه السلام د / عبد الجواد طيق ط دار الأرقم الزقازيق •
- ٢٨ - المحتسب فى تبين شواذ القراءات لابن جنى ط المجلس الأعلى للثبوت الاسلامى •
- ٢٩ - المزمهر فى علوم اللغة للسيوطى •
- ٣٠ - وجوه الخطاب البلاغية فى القرآن الكريم للدكتور / محمد على أبو زيد مخطوط بمكتبة كلية اللغة العربية بالزقازيق •

## الفهرس

٣	المقدمة	٤
	<b>الفصل الأول :</b>	١
٥	ما ورد من التشابهات في الافراد والتثنية والجمع	
	<b>الفصل الثاني :</b>	
٤٦	تنوع الخطاب بين الافراد والتثنية والجمع	
	<b>الفصل الثالث :</b>	
٧١	جمع القلة وجمع الكثرة	
	<b>الفصل الرابع :</b>	
٨٩	وضع الواحد موضع الجمع ووضع الجمع موضع الواحد	
	<b>الفصل الخامس :</b>	
١١٨	الدالة البلاغية للافراد	
	<b>الفصل السادس :</b>	
١٢٧	الدالة البلاغية للجميع	
	<b>الفصل السابع :</b>	
١٣٧	بين الافراد والتثنية	
	<b>الفصل الثامن :</b>	٢
١٥٤	الافراد والجمع	
	<b>الفصل التاسع :</b>	٢
١٧٥	بين التثنية والجمع	
١٨٩	أهم المصادر والمراجع	
١٩٦	الفهرس	



رقم الايداع بدار الكتب ١٠٥٩٢/١٩٩٤